الأهداف والوسائل

فأما الأهداف فهى – كما رأينا – أهداف الصليبية العالمية والصهيونية العالمية..

وأما الوسائل فشتى

* * *

منذ مولد الإسلام لقيه اليهود والنصارى بالعداوة والبغضاء..

فأما اليهود فقد كانوا يتوقعون أن يبعث نبى فى تلك الفترة من الزمان. وكان علماؤهم يقولون ، بحسب أمارات معينة يعرفونها فى التوراة: لقد أظل زمان نبى. ولكنهم كانوا يتمنون أن يكون النبى من بين أنفسهم. فلما بعث النبى ﷺ من أبناء إسماعيل لا من أبناء إسحق كانوا أول كافر به!

﴿ ولَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة: ٨٩ – ٩٠].

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۞ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠ – ٤١].

ومنذ اللحظة الأولى أخذ اليهود يكيدون للإسلام!

فمرة يظاهرون عليه قريشاً وغيرهم من كفار العرب – وهم يعلمون أنهم

كفار! – فيقولون عنهم إنهم أهدى سبيلا من المسلمين، ويشجعونهم بذلك على المضى فى كفرهم، ويؤخرون هدايتهم إلى دين الله.

﴿ألَمْ تر إلَى الّذينَ أُوتُوا نَصيبًا مّنَ الْكتَاب يُؤْمنُونَ بالْجبْت وَالطَّاغُوت ويقُولُون للّذين كَفَرُوا هؤُلاء أَهدىٰ منَ الّذينَ آمَنُوا سَبيلا﴾ [النساء: ٥١].

وتارة ينقضون المواثيق ليمكنوا الكفار من المسلمين فى قلب المعركة كما وقع فى وقعة الأحزاب.

وتارة يحاولون خلخلة الصف المسلم بالإرجاف ونشر الإشاعات وبلبلة الخواطر..

وتارة ينشئون طابورا خامسا داخل الصف المسلم بموالاة المنافقين، وإمدادهم بالخطط والتدبيرات التى تعرقل سير الدعوة، وتشغل جهد المسلمين بمواجهة الفتن والاضطراب..

وتارة يحاولون قتل الرسول ﷺ بالسم أو بالاغتيال..

وتارة يدخلون المعركة صريحة ضد المسلمين بأسلحتهم وحصونهم..

وهكذا وهكذا مما سجله تاريخ الفترة الأولى من الدعوة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ. فلما أجلوا من الجزيرة لم يهدأ كيدهم ولا محاولاتهم الدائبة للقضاء على الإسلام فى مهده. فكانت الفتنة الكبرى التى أضرمها عبد الله ابن سبأ، وأودت بحياة عثمان رضى الله عنه، إذ كان قد تظاهر بالإسلام ليفسد من داخل الصف. فراح ينشر الأراجيف ويزور الأخبار على عثمان رضى الله عنه ويسعى بها فى الأمصار، ويتابعها حتى تصل إلى غايتها. محاولا ما حاوله أخ له من قبل مع النصرانية: لولا تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه وإظهار دينه.

ومنذ ذلك الحين لم يكفوا قط عن الفتنة للمسلمين حيثما استطاعوا، على الرغم من أنهم لم يجدوا لهم ملجأ آمنا فى تاريخهم كله إلا فى كنف الدولة الإسلامية، حيث كانوا يعيشون عيشا رغدا فى كنف الإسلام..

وفى العصر الحديث كانوا أعوان الصليبية على الإسلام، ييسرون لهم السبل للإيقاع بالمسلمين. فروتشيلد اليهودى هو الذى أمدّ انجلترا بالمال الذى اشترت به حصة مصر فى قناة السويس، مما مهد للاحتلال البريطانى لمصر فيما بعد، وكانت انجلترا مترددة فى دخول هذه المغامرة فى بادىء الأمر لولا تشجيع اليهود. ثم كان يهود الدونما فى تركيا هم الذين قاموا بالدور الأخير فى القضاء على الخلافة الإسلامية، حين تظاهروا بالإسلام كما تظاهر عبد الله بن سبأ من قبل وهم يضمرون العداوة والبغضاء والكيد لهذا الدين، وكان منهم كمال أتاتورك الذى كان الأداة التى استغلتها الصهيونية والصليبية للقضاء على رمز الوحدة الإسلامية، وكان اليهود قد قرروا إزالة الخلافة منذ رفض السلطان المسلم عبد الحميد إعطاءهم وطنا قوميا فى فلسطين، فعملوا على إثارة الطوائف غير المسلمة داخل العالم الإسلامى، وتحالفوا مع لصليبية على برنامج مخطط مدروس لخلخلة وحدة العالم الإسلامى وتفتيته بإثارة النعرات القومية فى كل مكان فى بلاد المسلمين، فأغروا الأتراك باعتناق القومية الطورانية والعرب باعتناق القومية العربية، لضرب الترك بالعرب والعرب بالترك، إلى جانب الفتن الأخرى التى قام بها النصارى فى بلاد البلقان وغيرها من البلاد الخاضعة للدولة العثمانية. وفى النهاية كانت الضربة القاضية على يد عميلهم كمال أتاتورك الذى أعدوه للقيام بالدور الذى رسموه لتحطيم الكيان الذى يجمع المسلمين ويوحدهم ويمنحهم كيانهم المتميز، فى ظل البطولات الزائفة التى أضفوها عليه لإزاغة عيون الجماهير، إذ انسحبت أمامه – هو.. الصغير – جيوش الحلفاء التى كانت منتصرة ظافرة من قبل، ليبدو فى نظر الجماهير بطلا، وتكون جرائمه التى يرتكبها فى حق الإسلام والمسلمين بطولات !!

واشتد مكر اليهود والصهيونية منذ ذلك الحين لتفتيت كيان المسلمين.. بما يعرف المسلمون وما لا يعرفون !

* * *

ذلك تاريخ اليهود مع الإسلام.

أما النصرانية فقد بدأت العداوة مبكرة كذلك منذ فجر التاريخ الإسلامى!.

لم يكن للنصرانية شأن يذكر فى داخل الجزيرة العربية وقت نزول الإسلام، لذلك لم يكن لهم مع المسلمين شأن فيما عدا المجادلات التى كانوا يجادلونها فى العقيدة ويرد القرآن عليها أولاً بأول.

ولكن ما كاد الإسلام يتمكن فى الجزيرة ويصبح قوة ملموسة حتى قامت النصرانية الأوربية تناوئه وتناهضه العداء!

لماذا؟!

إن كتاب الغرب يكررون فى كتاباتهم اعتذارا عن وحشية الحروب الصليبية البشعة، وعن البغضاء التى يحملونها للمسلمين، أن الإسلام هو الذى بدأهم بالعدوان حين قامت جيوشه تجتاح الإمبراطورية الرومانية وتنتزع منها الأرض والناس والعقيدة والسلطان!

حقاً؟!

أو لم يكن الرومان هم الذين جهزوا لغزو الجزيرة العربية للقضاء على الإسلام فى مهده، وهو لم يصنع لهم شيئاً إلا أن دعاهم – مجرد دعوة سلمية – إلى الإسلام؟!

ثم قامت الحروب بين المسلمين وبين الروم، حتى استولى المسلمون على بلاد الشام، فاستقبل نصارى الشام المسلمين بالترحاب والمودة والاطمئنان والأمن، لأنهم وجدوا فيهم عينة من البشر جديدة عليهم، بل جديدة على تاريخ البشرية، وفريدة فى التاريخ.

يقول المستشرق ت.و. آرنولد T.W. Arnold فى كتاب «الدعوة إلى الإسلام The Preaching of Islam»:

«ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن، وعسكر أبو عبيدة فى فحل،

كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يامعشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم – وإن كانوا على ديننا – أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكفّ عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غالبونا على أمرنا وعلى منازلنا»[1].

أما أوربا الصليبية فقد بقيت على عدائها – الذى بدأته هى – للإسلام.

بقيت تناوش المسلمين – الذين رحب بهم نصارى الشام وأحبوهم، وعرفوا فى حكمهم من الأمن والطمأنينة ما لم يعرفوه فى أهل دينهم الرومان – وبقيت تحاول أن تجليهم من الأرض التى استولوا عليها، واستمرت الحروب تخسرها الإمبراطورية الرومانية ويكسبها المسلمون، حتى وقع نصف الإمبراطورية الرومانية تقريبا فى يد المسلمين.

ثم كانت الحروب الصليبية امتدادا للبغضاء الأولى التى بادأت المسلمين بالعداوة أول مرة، ومحاولة مجنونة لمحو الإسلام من الوجود. وارتكبت الحروب الصليبية من المجازر الوحشية والغدر ونقض المواثيق والفجور والفسوق ما تسجله مراجع الصليبين أنفسهم.

ثم انقض النصارى على المسلمين فى الأندلس ببشاعة لا مثيل لها من قبل فى التاريخ.. ألوف وألوف من المسلمين يبادون ذبحا وشنقا وحرقا فى حفر من النار المشتعلة، وحرقا فى الأفران، وألوف وألوف تقطع أوصالهم بالسيوف والخناجر والشد البطىء على العجلات، والشد إلى الخيل التى تساق فى اتجاهات متضادة لتمزيق الأرجل والأبدان وفصل أجزائها بعضها عن بعض..

وصور ينفر من مجرد تصورها الوجدان..

ولكنها كانت سهلة يسيرة على نفوس الصليبيين فى مواجهة الإسلام، وتجاوبت بها أصداء الفرح فى أوربا كلها، لأنها أشبعت الحقد الصليبى المسعور.

ثم قامت الصليبية تعاود للمرة الثالثة محاولتها للقضاء على الإسلام..

---

(١) ص ٥٧ من الترجمة العربية لحسن إبراهيم حسن وزميليه.

المرة الأولى – مبتدئة – كانت على عهد الرسول ﷺ.

والمرة الثانية – امتدادا لها تحت ستار حماية الحجاج النصارى إلى بيت المقدس (الذين لم يكن يصيبهم أى أذى على أيدى المسلمين) – كانت في القرن الحادى عشر، واستمرت إلى القرن الثالث عشر الميلادى.

والمرة الثالثة – عودا على بدء – بدأت فى القرن السادس عشر، وما تزال قائمة حتى اللحظة!

فما إن سقطت آخر دويلة إسلامية فى الأندلس – دويلة غرناطة – عام ١٤٩٢، حتى أصدر البابا بيانا بتقسيم أرض «الكفار» (يقصد المسلمين) بين أسبانيا والبرتغال، كما أصدر أوامره بمتابعة المسلمين خارج الأندلس ومطاردتهم..

وكانت البرتغال أسبق الدول استجابة لأمر البابا، فخرجت تتحسس الطريق حول العالم الإسلامى لترى من أى منفذ تنفذ إليه. وكانت رحلة فاسكودا جاما عام ١٥١٧ م أول رحلة استكشافية صليبية فى هذا السبيل، فقد قال فاسكودا جاما حين وصل إلى جزر الهند الشرقية: «الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا شد الحبل ليختنق فيموت»! هذا مع أن الذى هداه فى رحلته تلك هو البحار المسلم ابن ماجد، وهو الذى قاد سفينته إلى هناك!!

وتوالت بعد البرتغال بقية الدول الأوربية تتنافس فيما بينها على اغتصاب الأرض الإسلامية والاستيلاء عليها، مدفوعة بذات الدافع الصليبى الذى دفع البرتغال من قبل، حتى إذا جاء القرن التاسع عشر كانت كل الأرض الإسلامية تقريبا قد وقعت فى قبضة الصليبية، فيما عدا تركيا ذاتها وأجزاء من الجزيرة العربية. وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ م ثم تلتها الحملة البريطانية عام ١٨٨٢ م وكانت كلتاهما حملة صليبية فى الحقيقة، وإن تخفّت كل منهما بستار تخفى وراءه مقاصدها الصليبية، ولكنه ستار يظهر أكثر مما يخفى! فقد كان من أهم «أعمال» نابليون فى مصر تنحية الشريعة الإسلامية

وفرض قانون من وضعه بدلا منها، ولما لم يرض علماء الأزهر عن ذلك الوضع أمر بضرب الأزهر بالقنابل من القلعة، « ودخلت الخيل الأزهر »[1] لتجعله اصطبلا للخيول! وكان من أهم « أعمال » اللورد كرومر ما سبقت الإشارة إليه من « تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس . . » .

وعلى هذه الأرضية الصليبية الواضحة كان يعمل المستشرقون . . .

* * *

كان المستشرقون - كما رأينا فى نهاية الفصل السابق - هم ورثة المبشرين، ولكنهم - لأمرما - اتخذوا سمتا مغايرا لأولئك المبشرين.

كان اللورد كرومر يزجر المبشرين عن محاولاتهم المكشوفة لتنصير المسلمين. . ولم يكن ذلك لأنه يختلف معهم فى المقصد أو الغاية. فقد مر بنا من كلامه الصريح في هذا الشأن ما يثبت اتفاقه معهم فى الهدف النهائى المنشود. إنما كان يزجرهم - كما قال لهم حين اتهموه بالتضييق عليهم (!) - لأن المحاولات العلنية المكشوفة لتنصير المسلمين تستثير حمية المسلمين لدينهم، حين يرونه يهاجم مهاجمة صريحة، فيردهم ذلك إلى التمسك بالإسلام، عصبية على الأقل! وعند ذلك يفسد التدبير !

وإذاً فقد كان اللورد كرومر أبعد نظرا من أولئك المبشرين الشبان المتحمسين، وكان تدبيره أخبث من تفكيرهم المدفوع بالرغبة العاجلة فى الظهور عند الجهات التى تؤجرهم وتجزل لهم العطاء !

وكان رأيه أن العمل فى مصر خاصة - وفى العالم الإسلامى عامة - يحتاج إلى تدبير أخفى من التبشير.

وصدر الوحى من المخططين إلى المبشرين أن ينزووا بالتدريج، ثم يعودوا فى زى آخر مختلف. . زى الاستشراق والمستشرقين !

---

(١) عنوان كتاب من أجود ما كتب عن هذه الفترة من تأليف محمد جلال كشك .

وحقيقةً إن «المستشرقين» بهذا الزى المتخصص أقدم من هذا التاريخ.

ولكن حقيقةٌ كذلك أن أولئك المستشرقين القدامى لم يكونوا يفترقون فى شىء عن المبشرين، أى أن كتاباتهم – سواء كانوا يهودا أو نصارى – لم تكن تحمل إلا الطعن والتجريح والتشويه والتنفير، والدعوة السافرة إلى الخروج من الإسلام.

أما المستشرقون الذين نتحدث عنهم الآن فى هذا الكتاب فهم أولئك الذين اتخذوا السمت «العلمى» «الموضوعى» «المنهجى».. وهؤلاء هم الذين برزوا فى تلك الفترة التى خشيت فيها الصليبية من جهة أن يؤدى التبشير الصريح إلى إفساد التدبير كله، وحفز المسلمين على التمسك بالإسلام فى مواجهة الشتائم المتوقحة والطعن الجارح، واطمأنت من جهة أخرى إلى إرساء قواعدها عن طريق السياسة التعليمية التى يضعونها للبلاد الإسلامية، والتى تخرج أجيالا من المسلمين لا يعرفون حقيقة الإسلام، وينفرون نفوراً خفياً أو ظاهراً من الحياة الدينية، ولديهم الاستعداد – أو بذرة الاستعداد – لنبذ الدين وتقبل الكلام المحرف بشأنه، فيحسن فى تلك الفترة أن يكون التبشير خفياً، يتخذ ثوب «العلم» و «التعليم».

ويجدر بنا أن نعرف كذلك أن مصر بصفة خاصة كانت مركز التجارب الصليبية، وكان ما يحدث فيها يؤثر كثيراً فى رسم السياسة العامة للصليبيين تجاه العالم الإسلامى كله.

وذلك لأسباب..

جاء فى كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» قول أحد المنصرين بمناسبة الحديث عن الأزهر: «ربما كانت العزة الإلهية دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل، لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الإسلامية»[1] !!

---

(١) ص ٣٣ من الترجمة العربية.

إن مصر هى المركز الثقافى للعالم الإسلامى منذ زمن بعيد لوجود الأزهر فيه (مع عوامل أخرى كثيرة) وهى كذلك مركز من مراكز التوجيه للعالم الإسلامى. ومن ثم فإن إفساد الإسلام فى مصر له أهمية بالغة بصفة خاصة، لأن الناس فى العالم الإسلامى يثقون فى مصر أنها «أمهم» وموجهتهم، فأيما توجيه يصدر منها يكون له صداه فى العالم الإسلامى كله. فإذا كان هذا التوجيه مصنوعا على يد الصليبية وخادما لأغراضها، فقد كسبت الصليبية أكثر من نصف المعركة بجهد أقل، ولم يبق عليها فى الأماكن الأخرى إلا لمسات «تكميلية» بما يناسب كل بلد على حدة، بعد تصدير الفساد إليها من مركز التأثير والتوجيه (١)!

لذلك كانت عناية الصليبية – ومعها الصهيونية – بمصر عناية بالغة منذ أول لحظة.. وما تزال. وكانت جهودهما فى إفساد الدين ومحاولة القضاء عليه فى مصر جهوداً مركزة إلى أقصى حد، منسقة دقيقة مدروسة مخططة بكل ما تملك الصليبية والصهيونية من جهد وكيد وتدبير..

ولذلك كانت إشارة كرومر السابقة إشارة ذات دلالة في توجيه خطة العمل فى هذه البلاد..

يكفى ذلك القدر من أعمال المنصرين المكشوفة.. وتتزايد أعمال «المستشرقين» الملفوفة!

* * *

(١) لا ينفى هذا أن الصليبية قد بذلت جهوداً ملحوظة فى بلاد أخرى فقد كان نشاطها فى الهند بالذات وفى الشمال الإفريقى كذلك نشاطاً ملحوظا. ولكنا نقول فقط إن التركيز على مصر كان أشد، وإن التخطيط بالنسبة لها كان أدق وأشمل.

عمل المستشرقون لخدمة الصليبية الصهيونية بوسائلهم الخاصة . . الوسائل «العلمية» !

لا ينبغى منذ اليوم أن يكون الكلام عن الإسلام مكتوبا بلغة «الشوارع» . . لغة الشتائم المثيرة كما كانت كتابة المنصرين. إنما يكون الطعن والتجريح بلغة «العلم»! لغة المتعلمين على طريقة دنلوب، الذين لديهم الاستعداد – أو بذرة الاستعداد – لتلقى هذا الكلام عن الإسلام والمسلمين.

ذلك من حيث الشكل. أما من حيث الموضوع، من حيث الأهداف النهائية المراد تحقيقها فلا خلاف بين المنصرين وبين المستشرقين، فهؤلاء يخدمون أهدافا واحدة منذ البدء إلى الانتهاء !

وقع فى يدى فى يوم من الأيام كتاب بالانجليزية بعنوان Missions and Missionaries يتكلم عن نشاط الجمعيات التنصيرية، وردت فيه هذه القصة: أن كرومر حين جاء إلى مصر ضيق على الهيئات التنصيرية فاشتكته هذه إلى الحكومة البريطانية، فأرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إلى كرومر ليرد عليها ، فجمع المنصرين وقال لهم: هل تتصورون أن أقف فى وجهكم أو أضيق عليكم؟! ولكنكم تقومون بأعمال استفزازية، فتخطفون الأطفال وتنصرونهم بالقوة، وأحياناً تخطفون الكبار كذلك، فيستفز هذا مشاعر المسلمين فيتمسكون بدينهم أكثر. ولكنى اتفقت مع شاب تخرج حديثاً فى كلية اللاهوت بلندن، ليجىء إلى مصر ويضع سياسة تعليمية ستحقق لكم جميع أهدافكم [1] !! وكان يقصد بذلك مستر دنلوب الشهير!

* * *

(١) كان أحد الأصدقاء قد عثر على هذا الكتاب فى أثناء قيام أحد الأقباط فى الصعيد بهدم بيته وإعادة بنائه، فأطلعنى عليه ثم استرده منى، فلما أردت أن أحصل على نسخة من الكتاب لم أجد فى المكتبات، فطلبت من صديق فى لندن أن يبحث عن الكتاب فى مكتبة المتحف البريطانى ويصوره لى، فقيل له إن هذا من الكتب الممنوع إعارتها أو تصويرها !

يعمل المستشرقون لهدفين كبيرين رئيسين :

فهم أولاً يرصدون كل نشاط إسلامى – فكرى أو حركى – بما هو ميسر لهم من الأدوات، سواء بقراءة ما يكتبه المسلمون بلغاتهم – العربية بصفة خاصة، والأوردية، والتركية والفارسية – أو التحدث المباشر إليهم بألسنتهم لمعرفة أفكارهم وأحوالهم، ثم يبلغون بها دولهم التى تنفق عليهم، لتكون على علم بها أولا بأول، ويشيرون عليها – خفية أو علانية – بما ينبغى عمله تجاه ذلك النشاط، فهم بهذه الصفة «جهاز مخابرات ثقافى» يتحسس الأخبار ويبلغها ويشير بالتدبير المناسب.

وهم ثانيا يقومون بجهود «علمية !» منظمة للتشويش على المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، وتشتيت جهودهم وأفكارهم عن إقامة حركة بانية هادفة لتحقيق الإسلام فى الأرض فى أى بلد من بلاد الإسلام.

وهما هدفان يلتقيان فى النهاية عند خدمة المخطط الصليبى الصهيونى الرامى إلى القضاء على الإسلام.

* * *

وسنعرض فى الفصل القادم نماذج من كتب المستشرقين: تمثل بعض مدارسهم وأساليبهم «العلمية !» لتحقيق أهداف الصليبية الصهيونية، ونناقش منها ما يستحق المناقشة – الموضوعية – لبيان ما فيها من زيف ومغالطات وأباطيل، ولكنا نحتاج هنا في هذا الفصل – ونحن نستعرض الأهداف والوسائل – أن نتحدث عن القضايا العامة التى يثيرها المستشرقون، والأهداف الخفية من إثارتها، والوسائل المتشابهة التى يلجئون إليها لخدمة الغرض المشترك بينهم جميعا على الرغم من اختلاف تخصصاتهم.

وجدير بنا أن نشير هنا – وسنبين ذلك بالتفصيل فى موضعه فى الفصل القادم بإذن الله – إلى التشابه والتماثل والتكرار الممل الذى يجده الإنسان ما بين كتاب للمستشرقين وكتاب. فهى مجموعة من القضايا أو الشبهات والدعاوى

يثيرونها بذاتها فى كل مرة مع اختلاف طفيف في الصورة، وأحياناً بلا اختلاف حتى فى الألفاظ، وكأنما هى عصابة تجتمع لتتفق على إثارة هذه القضايا أو الشبهات والدعاوى، وتكرارها، والإلحاح عليها لهدف مرسوم.

نعم. هذا التكرار – الممل – فى كتبهم لا يأتى عفواً بلا اتفاق. إنما هو اتفاق بينهم – منطوق أو غير منطوق [1] – أن يداوموا على إثارة هذه النقاط ومناوشة المسلمين بها من كل جانب، حتى إذا رآها المسلمون تصدر عن كل باحث غربى فى الإسلام، ظنوا أنها لابد أن تكون حقيقة.. أو داخلهم الشك على أقل تقدير!

وسواء كانت هذه القضايا والشبهات والدعاوى مقصودا بها الشوشرة على أذهان المسلمين وأرواحهم لخلخلة عقيدتهم، أو استثارتهم للرد عليها، وإنفاق طاقتهم فى هذه المحاولة بدلاً من التفرغ للبناء، أو إحراجهم بالاتهامات المستمرة ليتنصلوا من بعض حقائق دينهم التى يرغب الأعداء أن يزحزحوهم عنها كمسألة الجهاد فى الإسلام، أو استدراجهم فى أثناء الدفاع عن أنفسهم ودينهم إلى إعلان صورة غير صحيحة للإسلام تخدم الصليبية الصهيونية فى النهاية، كما استدرجوا بعض الكتاب لكى يعلنوا أنه لا ينبغى تطبيق حد الردة على المسلم المرتد، واستدرجوا آخرين ليقرروا أن الإسلام يسوى بين الرجل والمرأة فى كل شىء، أو أنه يعطى المرأة **جميع الحريات** التى أعطاها لها الغرب، وآخرين ليقولوا إنه لابد من «تطوير» الإسلام ليتسع لصورة الحياة الراهنة في القرن العشرين (بصرف النظر عما فيها من الفساد) .. إلخ.

سواء كان الهدف هذا أو ذاك أو ذلك، فإن العصابة تتفق فيما بينها علي مداومة الكلام فى هذه النقاط – كل بطريقته الخاصة – ليحدث في نفوس المسلمين الأثر المطلوب!

بل إن العصابة لتمارس أحياناً لوناً آخر من نشاط العصابات !

---

(١) يعقد المستشرقون مؤتمرات دورية – علنية وسرية – لتنسيق خططهم إزاء العالم الإسلامى.

إنها – أحياناً – لا تبالى أن تتضارب أقوال بعضها وبعض فى الموضوع الواحد فى كتب مختلفة لكتاب مختلفين، بل أحياناً في الكتب المختلفة للمؤلف الواحد، بل أحياناً للمؤلف الواحد فى الكتاب الواحد !

ولا يجيء ذلك اعتباطاً !

إن البحث « العلمى » هو آخر ما يهدف إليه هؤلاء « العلماء » ! إنما البلبلة والتشويش والتشويه هى التى تعنيهم ! ومن وسائل البلبلة أن يقول أحدهم قولا فى الإسلام وينفيه منهم شخص آخر. أو يقول هو نفسه في مكان غير ما يقوله فى مكان آخر، فإذا الحصيلة المتحصلة فى ذهن القارئ هى الشكوك تتناوشه من الشمال واليمين !

على أن الأمر ليس فوضى فى هذه البلبلة !

إن أحدهم حين يقول القول، إنما يقصد – فى لحظته تلك، من زاويته تلك – أن يصل إلى هدف معين من تشكيك أو تشويش أو تشويه (أو تحذير لوضع السم كما سيجيء بيانه بالتفصيل !) فإذا بدا له فى لحظة أخرى – أو بدا لشخص آخر – أن عكس ذلك الكلام يمكن أن يفيد كذلك فى التشكيك أو لتشويش أو التشويه (أو التحذير) فلا بأس ! فليس العلم ولا البحث العلمى هو المقصود. وإنما هى زلزلة المسلمين عن إسلامهم، وصرفهم عن التمسك بهذا الدين !

فبينما يقول المستشرق الأمريكى اليهودى « مرو برجر » فى كتاب « العالم العربى اليوم » [1] الذى صدر عام ١٩٦٢ إن الإسلام قد نشأ فى البيئة البدوية العربية، فهو يحمل طابع هذه البيئة عميقا فى كيانه كله، ولم يستطع أن يتخلى عنه خلال كل القرون التى مضت منذ مولده، فما زال حتى اليوم يحمل طابع الصحراء فى تصوراته وأفكاره وشرائعه وتقاليده وتوجيهاته، يقول المستشرق اليهودى النمساوى « فون جرونيباوم » فى كتابه « الإسلام المعاصر » الذى صدر كذلك فى عام ١٩٦٢ إن الإسلام كان انقلابا كاملا فى حياة البيئة العربية

---

(١) سنناقش الكتب المشار إليها هنا بالتفصيل فى الفصل القادم إن شاء الله.

البدوية، فقد قلب مفاهيم الحياة كلها وتصوراتها وأفكارها وتقاليدها وأعمالها وغاياتها ووسائلها، ووضع مكان ذلك شيئاً جديداً بالمرة، لم يكن لينبت من هذه البيئة أو يصدر عنها. وحتى الأشياء التى أبقاها من البيئة البدوية قطع صلتها بمنشئها، وأعطاها مفهوماً جديداً فى سياق الحياة الجديد !!

وهما قولان – كما ترى – متناقضان من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين!

ولكن . . !

إن « مرو برجر» يقول قولته تلك ليزعم أن هذا الإسلام الذى نشأ فى البيئة البدوية لا يصلح لحياة المدينة، وبصفة خاصة فى هذا العصر الذى نعيش فيه، والذى أصبحت فيه الحياة فى المدينة شيئاً ضخماً معقداً غاية التعقيد.

و « جرونيباوم » يقول قولته (وهى صحيحة فى ذاتها) ليزعم بعدها أن هذا الإسلام « مستورد » كله من خارج الجزيرة العربية . . من اليهود والنصارى والفرس وغيرهم !

أى أنه الطعن والتجريح . . من اليسار ومن اليمين !

و « ولفرد كانتول سميث » المستشرق الكندى المعاصر يقول فى كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث »، فى أول الكتاب (فى صفحة ٦ من المقدمة) : « وإذ كانت السمة الأولى المميزة للعالم الإسلامى هى أنه « إسلامى »، فإننا نقدم لبحثنا بمحاولة لتوضيح ما تعنيه هذه الحقيقة ».

ثم يقول فى ص (٢٦ – ٢٧) فى فصل « الإسلام والتاريخ » : « . . لقد لاحظ الباحثون (فى أمر هذا الدين) بروز وضع المجتمع فى الإسلام . . ومن البين أن المجتمع الإسلامى ذو تماسك ملحوظ، وأن ولاء أعضائه وترابطهم عظيم القدر. وقد أدرك كثيرون أن الجماعة (الإسلامية) ليست مجموعة اجتماعية فحسب، بل مجموعة دينية، وأن « الدين والدولة » أمر واحد، إذا استخدمنا تعبيرنا الغربى غير الملائم . . . ».

ومع ذلك يعود فيقرر فى آخر الكتاب أن على المسلمين أن يتنازلوا عن هذه الفكرة الرئيسية فى عقيدتهم،وهى أن الإسلام لا يمكن أن يقوم إلا فى مجتمع مسلم، ويستبدلوا بها أن يعيشوا مسلمين (عقيدةً) فى مجتمع لا يقوم على أسس الإسلام !!

فإذا كان يقرر أن الإسلام لا يمكن أن يقوم إلا فى مجتمع مسلم، فكيف يظل الناس «مسلمين» بغير إسلام ؟!

إنه يقرر الحقيقة الأولى وهو يتظاهر بالانصاف للإسلام والمسلمين بما يرضى مشاعرهم الدينية» ثم يقرر «الحقيقة!» الثانية ليصرف المسلمين عن التمسك بحقيقة هذا الدين !!

والآن نأخذ فى شىء من التفصيل . . .

* * *

من الخطوط الرئيسية المتفق عليها بين هذه العصابة عدة أمور، أو «رءوس موضوعات» معينة يتناولها كل منهم من الزاوية التى تروق لمزاجه، أو يجد نفسه «موفقاً» فى تناولها !

● التشكيك فى صحة العقيدة، وكون الإسلام دينا منزلا من عند الله. والتشكيك فى كون الرسول ﷺ تلقى وحيا من عند الله.

● تشويه صورة الرسول ﷺ، والغمز والتجريح لشخصه الكريم [وعكس ذلك تماما من بعض المستشرقين: تعظيم للرسول ﷺ وتمجيد له على أنه إنسان عظيم ولكنه ليس نبياً ولا مرسلاً من عند الله!] .

● تشويه صورة رجالات الإسلام الذين لهم توقير خاص فى نفوس المسلمين بما يثير الشك فى دوافعهم وأعمالهم. وتشويه صورة العصر الأول من الإسلام بما يفسد روعته وتفرده ورفعته.

● تشويه التاريخ الإسلامى كله بتصويره فى صورة مهلهلة لا تشرف قوماً أن يكون هذا تاريخهم، وهذه حصيلة وجودهم التاريخى، وبصفة خاصة محاولة

إنكار أثر الإسلام والمسلمين فى نهضة أوربا [1] ، والزعم بأنهم كانوا مجرد نقلة للتراث اليونانى، وأن كل دورهم أنهم حفظوا ذلك التراث حين غفلت عنه أوربا، فلما استيقظت وجدت تراثها محفوظا عند «الحفظة» العرب فنهضت به !!

● الإلحاح على أن الإسلام انتشر بالسيف ليقوم المسلمون بالدفاع عن هذه «الخطيئة» والاعتذار عنها، وتقرير أن الإسلام لم يستخدم القوة أبداً إلا للدفاع.

● الإيحاء بأن الإسلام أصبح شيئاً من تراث الماضى البعيد، جاء فى دوره التاريخى، وانقضى بانقضاء ذلك الدور [بينما الحضارة اليونانية أزلية أبدية لا تفنى، ولا تفنى الحاجة إليها!] .

● الإيحاء بأن الإسلام دين عربى، بمعنى أنه مطبوع بطابع العرب، ومفصل على قدهم، لنفى أنه دين عالمى نزل للبشر كافة ويصلح للبشر كافة [والقول المناقض من قبل بعض المستشرقين بأن الإسلام ليس دينا عربياً، للقول بأنه استمد من المصادر اليهودية والنصرانية والفارسية فلا أصالة فيه!].

● القول بأن الإسلام دين رجعى جامد متأخر، لا يصلح للتطبيق اليوم ولا يساير التقدم، والقول – بصفة خاصة – أنه يكبل المرأة ويقيدها، ويقف فى سبيل «تحررها» [والقول المناقض لذلك تماما من قبل بعض المستشرقين من أن الإسلام دين مرن متطور! وأنه يستطيع أن يساير الحياة الحديثة «بتطوير» مفاهيمه، وتطوير الفقه الإسلامى بما يناسب الحياة الحاضرة! وأنه يسمح للمرأة – بالذات – بالتحرر والتطور.. على الاتساع!] .

● القول بأن الإسلام ليس له «نظم» وإنما هو مجموعة «توجيهات» عامة، وأنه – بصفة خاصة – لا يحوى نظاما للحكم ! وأنه استمد كل نظمه من البيزنطيين والفرس.

● الربط – أو الخلط – بين الإسلام والمسلمين، بحيث تضيع الصورة المتميزة للإسلام وتتميع، ويصبح الإسلام هو ما يصنعه المسلمون. فإذا كان المسلمون اليوم – مثلا – ضعافا ومتأخرين، فالإسلام كذلك !.

• (١) فيما عدا قلة قليلة من الكتاب الغربيين ليسوا أصلا من المستشرقين ! مثل بريفولت ودريبر وزيجريد هونكه وأمثالهم .

● تمييع مفهوم الإسلام كما أنزل من عند الله، وكما ضَبَطَتْ قواعده الضوابط الربانية من تحليل وتحريم وإباحة واستحباب وكراهية، وبالذات إخراج الحكم بما أنزل الله من ضوابط الحياة الإسلامية، فالناس مسلمون ولو تحاكموا راضين مريدين لغير ما أنزل الله، ما داموا يحملون أسماء إسلامية، حتى ولو لم يؤدوا العبادات المفروضة، أى مسلمون جغرافيون أو مسلمون بالوراثة !.

● الإلحاح على فكرة أن المسلمين يجب أن يأخذوا الحضارة الغربية بكاملها (دون انتقاء) ثم يظلوا مسلمين (عقيدةً !) وإلا.. فليس أمامهم إلا أن يتخلوا عن الإسلام !

● تبنّى الحركات المنحرفة عن سبيل الإسلام – التاريخية أو الحديثة – وتكبيرها، وتمجيدها، وجذب الأنظار إليها (كالصوفية – أو الخوارج – أو المعتزلة – أو الأحمدية – أو القاديانية.. إلخ) .

● إزجاء المديح لشخصيات معينة من الكتاب والزعماء المسلمين المحدثين، ومهاجمة آخرين بأعيانهم !

تلك – تقريباً – رؤوس الموضوعات المشتركة بين المستشرقين، التى يبدئون فيها ويعيدون، وبعد ذلك قضايا متناثرة « يتخصص » فيها بعض امستشرقين، كتخصص « مرجوليوث » فى قضية الأدب الجاهلى[1] ، وتخصص « مونتجومرى وات » فى التفسير المادى للإسلام، وأشباه تلك التخصصات، التى هى أبواب متفرقة يدخل منها الغمز واللمز والطعن والتجريح للإسلام والمسلمين.

وسنناقش – كما ذكرنا من قبل – ما يستحق المناقشة من أقوال بعض المستشرقين فى الفصل القادم. ولكننا هنا نتناول « القضايا » العامة، من حيث دلالتها على المنهج الصليبى الصهيونى لمحاربة الإسلام، ودعوة المسلمين إلى التحلى عن هذا الدين.

* * *

(١) سنتحدث عن هذه القضية فى نقاشنا مع مرجوليوث فى الفصل القادم .

فأما قضية العقيدة، وما يقال فيها، وما يقال عن الرسول ﷺ وتوهمه أنه نبى مرسل يتلقى الوحى من عند الله، فأمور أسخف من أن تناقش مناقشة جادة!

ولكن نلاحظ عليها ملاحظتين: الأولى أنها امتداد – بغير تغيير يذكر – لما كان المنصرون يكتبونه من قبل. ويتوقحون به على رسول الله ﷺ. والثانية أنها – على الرغم من كل ما يبذل فيها من جهود استشراقية – لا تزيد على أن تكون ترديدا لما كان يقوله مشركو العرب فى الجاهلية منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، مما حكاه القرآن الكريم وفنده. وصدق الله العظيم: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ.. ﴾ [البقرة: ١١٨].

أن محمداً ﷺ استقى الدين الذي ابتدعه من اليهود والنصارى.

أنه «ظن» أو «هيىء له» أنه نبى مرسل، وأن الله يوحى إليه، وأمره أن ينذر قومه.

أنه ﷺ كان مصابا بحالة نفسية – مرضية – تجعله يتخيل الرؤى، ويصدقها كأنها واقع.

أن القرآن يحتوى على مجموعة من أساطير الأمم السابقة سمعها محمد ﷺ ورددها.. إلخ.. إلخ.

وقال الله فى كتابه الحكيم:

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١].

وقال الله تعالى لهؤلاء الكفار – وغيرهم على مدار التاريخ – متحديا لهم جميعا:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣ – ٢٤] .

ومع ذلك فما زال المستشرقون يلوكون هذا الكلام السخيف بعد ما يزيد عن ألف عام !!

شيء واحد زادوه حقا في الحديث عن القرآن، لم يقله مشركو العرب الأوائل، ولا أهل الكتاب المتكلمون باللسان العربي من أهل الجزيرة العربية لأنهم كانوا أكثر جدية في أخذ الأمور، وأقل تبجحاً – على كل تبجحهم – ذلك قول المستشرق اليهودي « قايين رابين » تلميذ مرجوليوت في كتابه « اللغات القديمة في غربيّ بلاد العرب » إن القرآن قد احتوى على أخطاء لغوية ونحوية (!!) وإن المسلمين على مر الأجيال قد صححوا كثيراً منها، ولكن ما يزال بعضها باقيا حتى اليوم! وقول كارليل – الذي يعجب بكتابته كثير من المسلمين (مع الأسف) – في كتابه « البطل وعبادة الأبطال » إن القرآن الذي تركه محمد [ﷺ] مفكك ركيك مضطرب الأسلوب، أما شكسبير فقد ترك لنا كلاماً بليغاً رائعاً !!

وهذه القولة وتلك مجرد أمثلة من تخرصات المستشرقين، وإلا فليس قايين وكارليل وحدهما اللذين يطعنان في بلاغة القرآن وإعجازه (١) .

وشيء آخر زادوه في الحديث عن الرسول ﷺ، لم يقله كذلك مشركو العرب الأوائل ، ولا أهل الكتاب في الجزيرة، لأنهم كانوا أكثر احتراما لعقولهم وأنفسهم من أن يقولوه، علي الرغم من كل شهوتهم في التشهير بالرسول ﷺ وتجريحه وتنفير الناس منه، ذلك قول مرجليوث في الفصل الذي كتبه عن الإسلام في موسوعة « تاريخ العالم Universal History of the World » إن محمداً [ﷺ] مجهول النسب!!! فهو محمد بن عبد الله، وكانت العرب في الجاهلية تطلق على من لا تعرف نسبه: عبد الله !!!

---

(١) لمرجليوث كلام ممجوج في هذا الشأن تبناه طه حسين في كتابه « الشعر الجاهلي » سنتحدث عنه في الفصل القادم .

محمد مجهول النسب فى بيئة لا تهتم بشىء اهتمامها بالأنساب، ولا تعتز فى حياتها بشىء كما تعتز بالأنساب، وهو يتحدى آلهتها وتقاليدها وعباداتها وأوضاعها كلها بنسبه المجهول، ولا تجابهه قريش بنسبه المجهول، ولا تستغل هذا المغمز الخطير فى الدعاية ضده، وإبطال دعوته، حتى تجىء عبقرية مرجوليوث فى بداية هذا القرن فيكتشف لقريش ما كان غائباً عنها منذ ذلك الحين!! ومن الطريف أنه قال بعد صفحات قليلة من هذه القوله الفاجرة: **إن علياً ابن أبى طالب – ابن عم النبى ومن قبيلة قريش** – قام بحمايته !!

إنما الجدير حقاً، والخطير حقاً فى كتابات المستشرقين المعاصرين عن العقيدة وعن الرسول ﷺ أنهم كفّوا – معظمهم – عن هذا التجريح المباشر – الذى هو امتداد لطور المنصرين – حين وجدوا أنه لا يؤدى الهدف المطلوب منه، بل قد يؤدى إلى عكس المطلوب، إذ يثير حفيظة المسلمين فتشمئز نفوسهم منه ومن أصحابه، فلا يعودون يتأثرون بأقوالهم، فراحوا يتبعون طريقة أخبث توصلهم إلى هدفهم «بالراحة» وفى غفلة من المسلمين، فيبدأون الحديث بالمديح المريح المخدر للأعصاب! الإسلام عظيم، حوى كثيراً من المبادىء العالية والتوجيهات الرفيعة! والرسول عظيم، اشتمل علي أخلاق عالية وصفات رفيعة!.. **ولكن** !

ولابد من «لكن» فى جميع الأحوال.. أىّ لكن ! المهم أن توجد لكن!

فإذا أطمأنوا أولا إلى أن المديح المريح المخدر للأعصاب قد أحدث أثره، وألقى المسلم سلاح الحذر لأنه يعيش فى جوٍّ صديق، وجوٌّ نزيه، فعند ذلك يوضع السم فى العسل، ويتناوله المخدرون وهم فى غفلة، وهم «مبسوطون» .

﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ...** ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

وقد كان المستشرق الانجليزى المعاصر «هـ .ا.ر. جب H.A.R. Gibb » هو صاحب هذه المدرسة الشيطانية، ثم تتلمذ عليه فيها كثيرون، من أبرزهم حرونيباوم وولفرد كانتول سميث.

الإسلام عظيم..ولكنه مأخوذ من اليهودية والنصرانية !

الإسلام عظيم.. ولكنه يحمل طابع البيئة العربية !

الإسلام عظيم.. ولكنه كان حدثا «تاريخيا» فى حينه لم يكتب له الامتداد فى التطبيق الواقعى، أو لم يعد صالحاً للتطبيق.

الإسلام عظيم.. ولكنه لا يحتوى على نظم معينة وإنما أخذ الأنظمة من الرومان والفرس!

الرسول عظيم.. ولكنه كان «يتخيل» أنه رسول، وتتراءى له الرؤى فيصدقها!

الرسول عظيم.. ولكن ما إن رسخت أقدامه فى المدينة واستتب له الأمر حتى انقلب طاغية يطارد اليهود ويشردهم !

الرسول عظيم.. ولكن ما إن استقر له الأمر حتى اتخذ له «حريما» على عادة سلاطين الشرق!

الرسول عظيم.. ولكنه فى مواقف كذا وكذا تخلى عن مبادئه وارتكب أعمالا منافية للأخلاق!

وما بنا من حاجة أن نذكر البديهية الواضحة أن المستشرقين لن يعترفوا بأن الإسلام دين منزل من عند الله، ولا أن محمداً ﷺ رسول من عند الله، لأنهم لو اعترفوا بذلك للزمهم اتباعه، وهم قد كفروا به وما زالوا كافرين، ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولكن الذى يحتاج إلى التنبيه إليه هو هذه الطريقة الماكرة التى تتبعها المدرسة الحديثة من المستشرقين، التى تقدم فيها من المديح ما يخدع القارئ المسلم ويخدر أعصابه، لتدس له خلال ذلك من السموم ما تريد.

وقد خدعت هذه الطريقة عددا غير قليل من المسلمين، حتى ظنوا أن هؤلاء المستشرقين علماء حقا، ونزيهون حقا، ويجرون وراء الحقيقة العلمية حقا، وأن ما يقولونه عن الإسلام مما لا يُرْضِى المسلمين هو «وجهة نظرهم» التى

استخلصوها من خلال البحث العلمي! وهذا مبدأ المنزلق المقصود. فإذا كان «البحث العلمي» هو الذى أدى إلي هذه الآراء والملاحظات، أو ليس من الممكن أن تكون حقيقية حقا؟! أو ليس من الممكن أن نكون نحن المسلمين – بسبب كوننا مسلمين – قد غابت عنا هذه الحقيقة لأننا لم نفتح أعيننا عليها؟ أو ليس ينبغى أن نفتح أعيننا على الحقائق **بصرف النظر عن كوننا مسلمين؟** فلْنُنحِّ إسلامنا جانبا ونحن نقوم بالبحث العلمى، لنستخلص «الحقائق» المجردة عن هذا الدين!

وفى النهاية نكون نحن والمستشرقين سواء، نردد – بلا وعى – ما يفترون، ونذيعه بلغتنا وأقلامنا على المسلمين..

وما يطلب أكثر من هذا أعداء الدين!

والله يقول: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

* * *

وكما عمد المستشرقون – بالطريق المباشر أو بالطريق الملفوف الماكر – إلى التشكيك فى صحة العقيدة وتشويه صورة الرسول ﷺ، فقد امتدت الخطة – امتداداً طبيعياً – إلى تشويه صورة رجالات الإسلام وتاريخ الإسلام.

والهدف من وراء ذلك واضح..

إن «الرصيد» الإسلامىٰ فى نفس المسلم، الذى يكوّن عقيدته ويزكيها، والذى هو فى الوقت ذاته موضع اعتزاز المسلم واستعلائه هو هذا القرآن الذى نزل من عند الله، والرسول ﷺ بشخصه وسيرته وأفعاله وأقواله.. ثم هو تاريخ الصدر الأول من الإسلام، الحافل بأفذاذ الرجال والنساء من المسلمين والمسلمات، والحافل كذلك بألوان عجيبة من العظمات والبطولات: الروحية والنفسية والحربية والسياسية.. ثم تاريخ الإسلام عامة بوصفه حصيلة ضخمة لأمة تعمقت

فى واقع التاريخ، وامتدت فى رقعة الأرض، وكانت منذ مولدها خطأ بارزاً فى تاريخ البشرية كله، سواء داخل العالم الإسلامى أو خارجه؛ سواء بين الذين اعتنقوا هذا الدين وعملوا به وعملوا من أجله، أو الذين حاربوه وأمعنوا فى البعد عنه ولكنهم تأثروا به فى واقع حياتهم تأثراً لم يكن لهم معدًى عنه، كما تأثرت أوربا فى بدء نهضتها، فأخذت كل مقومات نهضتها من المسلمين (١)

والاعتزاز والاستعلاء هما أغيظ ما يغيظ الصليبية الصهيونية من المسلمين، وأخشى ما يخشيانه كذلك من الإسلام !

وإذن فلابد أن تكون الخطة الاستشراقية - أى الخطة الصليبية الصهيونية - هى محاولة كبت ذلك الاستعلاء، ومحاولة نزع ذلك الاعتزاز من نفوس المسلمين، لدرء ذلك الخطر الذى لا تؤمن عواقبه!

والسبيل هو تصوير تلك العقيدة فى الصورة التى لا يعتز أحد بالانتساب إليها، ولا يحس الاستعلاء من كونه معتنقا لها. والسبيل هو تشويه صورة الرسول ﷺ، وتصوير أهدافه وبواعثه وأعماله وسلوكه فى الصورة التى يستنكف الإنسان أن تكون هى صورة رسوله! وتشويه صورة صدر الإسلام خاصة لأنه موضع أشد الاعتزاز عند المسلم - بعد اعتزازه بالإسلام - بصفة أنه قمة لم تبلغ إليها البشرية كلها فى تاريخها كله، فينبغى أن تصور على أنها فترة عادية لا ارتفاع فيها ولا امتياز يستحق الاعتزاز ! ثم تشويه التاريخ الإسلامى جملة بحيث يبدو فى النهاية شيئاً ضيئلاً لا أثر له ولا وزن فى حياة البشرية.

تلك هى أهداف الصليبية الصهيونية التى يمثل الاستشراق جانباً منها، ووسيلة من وسائلها فى هذا الجانب من جوانب المعركة التى بدأت منذ مولد الإسلام، وما تزال تعمل بلا انقطاع !

﴿ ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة:٢١٧] .

---

(١) راجع الفصل السابق: «من هم المستشرقون».

إنما الجديد – كما قلنا – أنهم كفّوا عن التجريح المباشر، ولجأوا إلى اللف الماكر.. ومع ذلك فليس هذا جديدا كله، بل لعله عودة إلى إحدى الوسائل التى استخدمها أهل الكتاب من قبل، والتى أشارت إليها الآية التى ذكرناها آنفا: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢] أى تظاهروا بالإيمان أول النهار ثم اكفروا آخره لعل من وثق بكم منهم يرجعون معكم فيخرجون من الإيمان!

* * *

الخطة إذن هى التشويه المتعمد لكل ما يتعلق بالإسلام من معانٍ ومبادئ وقيم وأشخاص وتاريخ، لنزع الاستعلاء من قلوب المسلمين المعاصرين، حتى لا يفكروا فى العودة إلى الإسلام من جديد! لابد من «كسر نفوسهم» حتى لا يرفعوا رءوسهم! لابد أن يشعروا بالغضاضة من أنهم مسلمون! فينطووا فى دخيلة أنفسهم على الخزى والمذلة بدلا من الاعتزاز والاستعلاء!

نفس الهدف الذى حاولته جيوش الصليبية الصهيونية وسياستها، ولكن على مستوى أعمق.. وأخبث!

إن الجيوش الغازية التى قامت فى القرون الأربعة الأخيرة تخضع بلاد العالم الإسلامى لحكم الصليبية الصهيونية كانت وسيلة – مكشوفة – لإذلال المسلمين وكسر شوكتهم، إرواء للحقد التاريخى الذى اعترف ولفرد كانتول سميث بأن أوربا لن تنساه[1]!

والخطط السياسية التى اتبعتها الصليبية الصهيونية لتفتيت العالم الإسلامى وتفكيك أوصاله والاستيلاء عليه قطعة قطعة، والتى انتهت بتدمير نقطة الارتكاز ومحور الربط بين المسلمين فى شتى أرجاء الأرض، على يد أتاتورك بإلغاء الخلافة، كانت وسيلة أقل انكشافا وأكثر خفاء من الجيوش المكشوفة،

(١) راجع كلام سميث فى الفصل السابق.

ولكنها تهدف إلى الهدف ذاته، وهو إذلال المسلمين وكسر شوكتهم، إرواء للحقد الصليبى القديم.

أما المستشرقون وأفاعيلهم فهم الخطة الأخفى لتنفيذ الهدف ذاته.

فالسياسة التعليمية التى وضعها دنلوب (وأشباهه فى العالم الإسلامى) تخرج «المسلمين» المخلخلى العقيدة، المنصرفين عن الإسلام، المهيئين - بحالتهم هذه - لتلقف الجرثومة السامة واحتضانها، والمستشرقون يتولون وضع الجرثومة وغرسها فى الأعماق.

* * *

فأما العقيدة وأما شخص الرسول ﷺ، فقد مر بنا فى إيجاز ما يحاوله بشأنهما المستشرقون.

وأما رجالات الصدر الأول من الإسلام، تلك النماذج الرفيعة من البشرية فى جميع أعصارها، فهم - بصورتهم هذه، وفى مكانهم السامق من التاريخ - مصدر خطر ضخم على الصليبية الصهيونية. بل إنهم - فى وضعهم ذلك - يمثلون أخطاراً شتى فى آن واحد.

فهم أولاً - كما أشرنا آنفا - موضع اعتزاز للمسلم يدفعه إلى الاستعلاء. فإن من يكون هؤلاء أهله وعشيرته (والمسلمون فى التاريخ أمة واحدة، بعضهم من بعض، تربطهم رابطة العقيدة، وتحل بينهم محل رابطة الدم فضلا عن اللغة والأرض، فيحس المسلم الذى يعيش اليوم فى أى مكان من العالم الإسلامى أنه بقية أولئك المسلمين الأوائل، وامتدادهم فى واقع التاريخ) إن من يكون هؤلاء أهله وعشيرته جدير حقاً أن يحس بالاستعلاء[1] ! ففى فترة متناهية فى القصر ظهرت هذه البطولات والعبقريات تنبثق انبثاقا من ذلك النبع الثرّ الذى

---

(١) صحيح أن الاعتزاز الفارغ بالآباء والأجداد ليس عنصراً «إيجابيا» فى أى صراع أرضى، ولكن التجربة أثبتت أن اعتزاز المسلمين بتاريخ آبائهم وأجدادهم لم يكن «فارغا» إنما كان حافزا من حوافز الصحوة !

فجره الإسلام، فضلاً عن كونها بطولات وعبقريات من نوع نادر الوجود. فهذه عظمات الأعصر الحديثة – على تفرقها فى الزمان والمكان – تبدو على الرغم مما يطنطن لها ويروج لها من الدعاية فى وسائل الإعلام، أقزاما صغيرة بجانب تلك العظمات الفذة، التى تمثل «الإنسان» فى أروع حالاته، بينما معظم «البطولات» التى تعيش فى هذه الفترة المنتكسة من حياة البشرية، هى إما عبقريات ذهن بلا روح، أو بطولات حرب لا يسوقها إلا الاستكبار فى الأرض وإذلال الضعفاء، أو براعات سياسة تسوقها عصبيات الأرض واهتماماتها الصغيرة !

ثم إن هذه النماذج الفذة من صدر الإسلام تمثل بالنسبة للصليبية الصهيونية خطراً آخر. فهم ليسوا فقط موضع اعتزاز المسلم المعاصر (والاعتزاز عنصر ممقوت عند الصليبية الصهيونية) إنما هم يمثلون كذلك نوعاً من القدوة الخطرة! فما داموا باقين هكذا مسلطة عليهم الأضواء – أضواء التاريخ – فما الذى يمنع أحد المسلمين أن تحدثه نفسه أن يقتدى بهم، فيحاول الارتفاع بنفسه إلى قريب من مستواهم، فينبعث الإسلام من جديد نتيجة تلك المحاولة؟!

كل شىء إلا هذا !

ينبغى أن تعمل الصليبية الصهيونية بكل جهدها لطمس هذه الأضواء الخطرة الرهيبة!

ثم إن هناك خطراً آخر..

إن روح «الجهاد» فى هذه الفئة من البشر لهى من أخطر المخاطر فى تأثيرها على المسلم المعاصر! فهم لم يكونوا يرتكزون إلى قوة مادية يحسب لها حساب إلى جانب الإمبراطوريات التى كانت قائمة يومئذ عن يمين وعن شمال، والتى كان لديها من القوة المادية والعسكرية والسياسية والتمرس بشتى الخبرات والقدرات ما كان كفيلاً لها بالغلبة في الصراع، ولكن هذه الفئة القليلة العدد، القليلة العتاد، استطاعت فى زمن وجيز أن تتغلب على كلتا الإمبراطوريتين المجاورتين، فارس والروم، بالعنصر الأوحد الذى كانت تفتقده كلتا

الإمبراطوريتين، وهو العقيدة الصحيحة، والإيمان الصادق بتلك العقيدة، فأى خطر – بل أى كارثة على الصليبية الصهيونية – أن يقتدى نفر من المسلمين اليوم بأولئك الأفذاذ فيتصدون «للجهاد» إزاء السيطرة الصليبية الصهيونية الجاثمة على صدور المسلمين ؟!

كلا ! كلا !

لابد من تشويه هذه النماذج الفذة، حتى تفقد بريقها وتأثيرها وموضع القدوة فيها، وتنقلب – على العكس – صورا هزيلة منفرة يستنكف الإنسان أن يكون امتدادا لها، أو يتخذها قدوة له فى أمرٍ من الأمور!

وسنناقش فى الفصل القادم كتاب المستشرق اليهودى «فلهوزن» عن «الدولة العربية» بوصفه نموذجا من نماذج التشويه للصدر الأول من الإسلام ورجالاته وأحداثه، ودوافعه وسلوكه، ولكنا نجتزئ هنا بمثال واحد من أمثلة التشويه، ذلك قوله إن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما «اغتصبا الخلافة اغتصابا» !!

وى !

ممن اغتصباها ؟!

لو قال من علىّ رضى الله عنه فلربما قيل إنها وجهة نظر، ولو أنها وجهة نظر مردودة، أما أن يرسلها على إطلاقها فمن هم ياترى أولئك الذين وكّلوا فلهوزن فى القرن الرابع عشر الهجرى لرد ذلك الاغتصاب التاريخى الذى وقع عليهم من أبى بكر وعمر فى القرن الأول وهم غافلون؟! ومن هو «المرشح» الذى رشحه المسلمون للخلافة فاغتصبت منه على يد أبى بكر وعمر؟!

ألا إنها درجة من المماحلة والمماحكة لا يقدم عليها إلا المستشرقون !

* * *

أمر آخر بالنسبة لفترة صدر الإسلام ربما لا نلتفت إليه كثيراً هو ما يمكن أن نسميه «التعتيم الإعلامى» بالنسبة للصحابيات الجليلات ومواقفهن البطولية

الفذة، سواء بالصبر والاحتساب لفقد رجالهن فى المعارك، أو دورهن فى بناء المجتمع المسلم بأخلاقياته الرائعة، أو بمشاركتهن فى الجهاد والقتال، وهى جميعاً مما يعتز به المسلم المعاصر من تاريخه المجيد..

ولكن التعتيم الإعلامى بالنسبة لهن من قبل المستشرقين له أسبابه التى لا تخفى!

فهم من جانب يلحون فى القول بأن الإسلام أهان المرأة وكبّلها وهمّش دورها فى الحياة وأزرى بكيانها بوصفها «إنسانة» شريكة للرجل فى الإنسانية وفى مجالات الحياة المختلفة، فهؤلاء الصحابيات الجليلات ببطولاتهن الفذة رد صارخ على هذه الدعوى (بصرف النظر عن انحرافات المجتمع الإسلامى فيما بعد فى النظر إلى المرأة وأسلوب معاملتها **فهذا ليس من الإسلام**، إنما هو من انحرافات المسلمين عن الإسلام، ولكن المستشرقين يريدون أن يلصقوه بالإسلام ذاته لينفروا الناس منه!) ثم إن هذا النموذج الذى ضربته الصحابيات الجليلات، ونساء المسلمين عامة فى الصدر الأول من الإسلام، نموذج مؤذٍ للصليبية الصهيونية من جانب آخر، فإن مشاركة المرأة المسلمة فى كل المجالات التى عملت فيها فى صدر الإسلام كانت فى ظل **الحجاب الشرعى**، وفى ظل الالتزام الكامل بأخلاقيات الإسلام التى تمنع الاختلاط بغير ضرورة، وتمنع التبرج والتخلع والتكسر فى الكلام أو الحركة، وليس هذا هو النموذج الذى تريد الصليبية الصهيونية أن ترى عليه المرأة المسلمة المعاصرة، إنما هى تريد النموذج الآخر المتبرج المتخلع المتكسر، على أنه هو النموذج الذى يجب أن تكون عليه المرأة لكى تكون «متحررة» ثم تقول الصليبية الصهيونية فى دعايتها ضد الإسلام إنه يمنع المرأة هذا «الحق» ومن ثم فهو لا يساير التقدم، ولا يصلح للحياة فى الوقت الحاضر!

* * *

أما تاريخ الإسلام جملة فهو كذلك موضع التشويه والتحريف والتنفير.. لنفس الغاية.. لقتل الاستعلاء والإعتزاز.

إن التاريخ الإسلامى هو تاريخ جماعة من «البشر» على أى حال. وهم جماعة فائقة من البشر ما فى هذا شك، على الأقل فى القرون الأولى. جماعة

وصفها ربها الكريم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .. لكنهم فى النهاية بشر!

والبشر يخطئون ويصيبون، ويرتفعون ويهبطون، بحكم بشريتهم التى تشتمل على نقاط القوة ونقاط الضعف، واستعداد الارتفاع والهبوط، واليقظة والغفلة، والخطأ والصواب.

والتاريخ «العلمى» لأى جماعة من البشر، ينبغى أن يوزع الأضواء توزيعا عادلا على لوحة الواقع التاريخى، بحيث تكشف لحظات الهبوط ولحظات الرفعة بنسبها الحقيقية الواقعية دون تحريف.

فإذا شاء المؤرخ أن يبرز حدثا معينا أو شخصية معينة لأنها فى حسه أثقل وزنا أو أبعد أثرا فذلك من حقه سواء وافقناه أو خالفناه، فهو إنسان على أى حال، ولا يمكن أن يتجرد من «الخصوصية» الذاتية فى كيانه فى النظر إلى الأشخاص والأحداث، ولكنه مع ذلك محكوم «بالواقع» فليس له وهو يبرز حدثاً معينا أو شخصية معينة أن يقلب النسبة بين الأبيض والأسود فى لوحة التاريخ، أو أن يجعل مزاجه الخاص هو المتحكم الوحيد فى حكمه على الأشخاص والأحداث.

وحين يؤرخ الأوربيون لأوربا أو لغير العالم الإسلامى عامة فهم غالبا ما يلتزمون بهذه المعايير، مع ترك مساحة معقولة لبشرية المؤرخ فى أحكامه التى تتأثر ولا شك بميوله الخاصة، وخصوصية نظرته للأشياء.

أما حين يؤرخ المستشرقون للإسلام فهنا يختلف الأمر تماماً، وتنقلب الموازين! فهم منذ اللحظة الأولى يكتبون بروح العداء، وبنية التشويه والإفساد! لا بالنظرة الموضوعية ولا بروح الإنصاف.

فتاريخ الإسلام لا يعالج ابتداء على أنه تاريخ جماعة فائقة من البشر.

ولا يعالج ثانيا على أنه ذو ثقل ووزن فى تاريخ البشرية.

ولا يعالج ثالثا على أنه ذو أثر فعال على أوربا بصفة خاصة (إلا النادر القليل الذى أشرنا إليه من قبل).

وأخيرا يقلب توزيع الأضواء على اللوحة، فتبرز لحظات الضعف والانحراف إبرازا شديداً، وتطمس لحظات الارتفاع، فيحيط بها «التعتيم الإعلامى» !

وذلك كله فوق قلب الحقائق ذاتها وتشويهها، كالذى مر بنا من قولة فلهوزن، ومثلها فى كتبهم مئات ومئات.. بل هو فن قائم بذاته يتقنه المستشرقون، ويتبارون فى إظهار البراعة فيه !

* * *

إن تاريخ الإسلام لا يخص المسلمين وحدهم، وهو مفتوح للبشر كلهم يكتبون فيه، ولكن حين يؤرِّخ للإسلام تأريخاً «علمياً» «موضوعيا» «منصفا» (كما يدعى المستشرقون) فلابد أن تتقرر فيه جملة من الحقائق لا يملك إنكارها التاريخ !

● فالإسلام أول نظام واقعى طبق فى واقع البشر حاول أن يقيم ملكوت الله فى واقع الأرض ولا يرجئه إلى ما بعد هذه الحياة، فى حين أن المسيحية الكنسية فى أوربا تخلت عن هذه المهمة منذ أول لحظة، وأرجأت «ملكوت الرب» إلى يوم آخر، وأقامت فى واقعها ملكوت القانون الرومانى، الذى أباح استرقاق الأمم والشعوب، وأباح الإقطاع ثم أباح الرأسمالية، وسمح لطاغوت الجاهلية أن يركب الناس فى صور مختلفة خلال ألفين من السنين!

وهذا وحده – على الرغم من كل ما وقع من انحرافات المسلمين – حدث ضخم فى تاريخ البشرية ينبغى تسجيله فى التأريخ «العلمى» الذى يبحث عن «الحق» ولا يعنيه إلا وقائع التاريخ.

● والإسلام – لأنه حاول إقامة ملكوت الله فى واقع الأرض – هو الذى حرر «الإنسان» – من حيث هو إنسان – من كل عبودية تحدّ من إنسانيته، وذلك بإخلاص العبودية لله وحده بغير شريك، وإزالة كل طاغوت فى الأرض يستعبد الناس. سواء كان الطاغوت صنما يعبد فى عالم المحسوسات. أو وثنا يؤله فى عالم المعنويات، أو كان فرداً أو قبيلة أو جماعة أو طائفة أو أمة تطغى على

الناس. أو كان عرفاً أو تقليداً مستمدا من باطل الناس فى الأرض، أو كان قوة مادية أو اقتصادية أو سياسية؛ وحرره مبتدئا لا مضطرا، ولا واقعاً تحت «حتمية» من الحتميات الزائفة التى يؤلهها التفسير المادى للتاريخ! وكان ذلك قبل أن تفيق أوربا من ظلماتها، وتثور ثوراتها وتحقق حرياتها المشوبة بالعوج والانحراف فى أكثر من جانب.. وكان هذا التحرير – بإخلاص العبودية لله وحده، الجدير وحده بالعبادة – هو المعنى الحقيقى لعقيدة التوحيد، التى تمثلت فى الإسلام أصفى ما تكون، وتحققت فى واقع الأرض أمكن ما يكون التحقيق، رغم كل ما وقع من انحرافات خلال القرون.

● والإسلام هو الذى حرر المرأة – لأول مرة فى تاريخ البشرية – تحريراً نفسيا ووجدانياً وعملياً، وعاملها على أنها «إنسان» فى حين ظلت أوربا حتى بدايات القرن العشرين تحرمها حق الملك والتصرف فى ملكها بالبيع والشراء والرهن والإجارة إلا بوصاية وصى. ثم أطلقتها – حين أطلقتها – على طريقة الحيوان لا على مستوى الإنسان، ولا بهدف ترقية الإنسانية ورفعها إلى آفاقها العليا، ولكن بهدف الهبوط بها إلى حمأة الشهوات.

● والإسلام هو الذى حول مجرى «العلم» من التأملات النظرية إلى المنهج التجريبى، وكان فوق ذلك – لأنه يحاول تحقيق ملكوت الله فى واقع الأرض – يستخدم العلم فى سبيل الخير، ولا يستخدمه لنشر الإلحاد، ولا لإفساد الأخلاق، ولا لإحداث الدمار فى الأرض.

● والإسلام هو القوة السياسية الوحيدة فى تاريخ البشرية التى فتحت البلاد دون أن تستعبد العباد! فكفلت للناس حرية العقيدة، وحرية العبادة، وحرية الضرب فى فجاج الأرض ماداموا لا يؤذون المسلمين ولا يقومون بالإفساد فى الأرض، ولم تحجب عن البلاد المفتوحة شيئاً مما تملكه من العلم أو الخير اعتزازاً بعنجهية الغلبة والسلطان.

● والإسلام هو الذى قرر أصول المعاملات الدولية فى معاهداته التى أبرمها مع غيره **ثم حافظ عليها**، بينما البشرية ما تزال حتى قرنها العشرين هذا لا تحافظ

على العهد ولا تفى بالوعد، بل تتبارى فى إظهار براعتها فى نقض المواثيق والتفلت منها عند أول بادرة تلوح لها وتحت أى تعلة تخترعها لتبرير بربريتها.

وهذا كله غير الحضارة الشاملة التى حققها الإسلام فى واقع الأرض، والتى تشهد بحيوية هذا الدين فى كل اتجاه.

وخلال ذلك كانت تقع الانحرافات، ويقع الهبوط، ويقع الشر. ولكن دون أن يلغى هذا حقائق التاريخ البارزة أو يلغى دلالتها. وإلا فإن هذه الانحرافات كلها - وأكثر منها - تقع - ووقعت بالفعل - فى تاريخ كل جماعة من البشر، دون أن يكون فى مقابلها هذا المستوى من النظافة والرفعة وسمو الآفاق، الذى لم يتحقق أو لم يتحقق بدرجته تلك كما تحقق فى أمة الإسلام.

وما نريد أن تصطنع صورة مزورة من التاريخ الإسلامى، أو نخفى ما حدث فى تاريخ المسلمين من انحراف وهبوط وانتكاس وشرور. فالمؤرخ المسلم مأمور أن يقول الحق ولو على نفسه والأقربين إليه :

﴿ يا أيُّهَا الَّذين آمَنُوا كُونُوا قوَّامينَ بالْقسْط شُهَدَاءَ للَّه ولَوْ عَلَىٰ أنفُسكُمْ أَوِ الوالدين والأقربين﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿ يا أيُّهَا الَّذين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ للَّه شُهَدَاءَ بالْقسْط ولا يجْرِمَنَّكُمْ شنَآنُ قوْم علَىٰ ألاَّ تعْدلُوا اعْدلُوا هُوَ أقْرَبُ للتَّقْوَىٰ واتَّقُوا اللَّه إنَّ اللَّهَ خبيرٌ بمَا تَعْمَلُون﴾
[المائدة: ٨].

وحين يكون المسلم مؤرخاً فليس له أن يزور صورة غير حقيقية لتاريخه، يتستر فيها على الانحرافات لتبدو الصورة زاهية الألوان! بل إن إبراز العيوب بدلالتها الحقيقية لهو جزء من الأمانة المطلوبة من المؤرخ، فهذه الأمة بخير ورفعة وتمكن فى الأرض ما استقامت على منهج الله، فإذا هى تفلتت من تكاليف دينها وعصت ربها أصابها الوهن وانحسر عنها التمكين الذى وعدها به الله. وهذا هو المحور الذى ينبغى للمؤرخ المسلم أن يدير الأحداث حوله، وهذا هو العرض «العلمى» و«الموضوعى» لتاريخه.

ولكن المستشرقين لا يفعلون ذلك، ولم يكن همهم قط التأريخ العلمى للإسلام . . إنما الذى يسعون إليه هو وصم الإسلام ذاته بكل نقيصة، وردّ الانحرافات كلها إلى أصل الإسلام، ثم تشويه صورة الأحداث والأشخاص حتى ينقلب الأبيض أسود، ويردّ السواد للإسلام [1] !

* * *

ويجب أن نشير إلى أن المدرسة الحديثة من المستشرقين لا تنكر جوانب العظمة في التاريخ الإسلامى ولا تغفل ذكرها . .

يقول « جرونيباوم » فى كتابه « الإسلام Islam » (والأقواس الشارحة من عندنا) :

« إن الأمر الذى اقتضى عشرات السنين من المسيحيين الأوائل لكى يدركوه، قد أدركه محمد (ﷺ) بعد سنوات قليلة، وهو أنه ما دامت إرادة الله قد اقتضت أن تمتد الحياة الدنيا فترة من الوقت طالت أو قصرت، فإن جماعته (أى الجماعة الإسلامية) ينبغى أن تستقر فيها (أى فى الحياة الدنيا) فى **التقاء كامل مع تعاليم الوحي المنزل** . ومن ثم أصبحت مهمة الجماعة أن تنشىء نمطا شاملا للحياة فى ظل الله (أى فى ظل الوحى الربانى) يشمل كل وجه من وجوه الوجود البشرى من أول التصور إلى الدفن (أى : يشمل الأمور الاعتقادية – التصورية –

---

(١) يأخذ علىّ بعض المستشرقين، وكذلك بعض « المسلمين » المعجبين بالغرب وما فيه أنى أعطى دائما صورة قاتمة للغرب فى عهده الحاضر، وأذكر عيوب الحضارة الغربية دون محاسنها . **وأنا لا أؤرخ للحضارة الغربية** ولا أدعى ذلك! إنما أنا أقول منذ البدء : أيها المفتونون بالحضارة الغربية إن فيها عيوباً لا ترونها هى كذا وكذا، وإن محاسنها كلها لا توازى هذه العيوب، ولا تصلح أن تكون عذرا لها، فليس من مستلزمات التحضر والتقدم أن تكون فيه الفوضى الأخلاقية والمادية الجاحدة والانطلاق مع الشهوات . ومع ذلك فحين يكون المجال مجال « التقويم » فإنى أذكر الإيجابيات والسلبيات كما فعلت فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » وكتاب « رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر » . أما المستشرقون فإنهم يزعمون أنهم يؤرخون للإسلام تأريخاً علميا موضوعيا ! هذه واحدة . والثانية أن العيوب التى أتحدث عنها بالنسبة للحضارة الغربية هى واقع مشهود، يشهد به كتاب الغرب أنفسهم، وعقلاؤهم ينددون به، وليست أمورا مختلقة عليهم . أما اختلاقات المستشرقين على الإسلام والتاريخ الإسلامى فهى أكثر من أن تحصى !

كما يشمل الأمور السلوكية) ويلغى كل تمييز بين المقدس والدنيوى من مظاهر الحياة. بجعل كل دقيقة من دقائق هذه الحياة متصلة بعضها ببعض برباط الدين، ومحتاجة إلى مراسم (دينية) لتكملتها عند أداء أى عمل من الأعمال مهما كان نوعه. وبهذه الطريقة توحدت قوالب السلوك إلى حدٍ ما، ولكن الحياة كلها، حتى أدق تفصيلاتها أعطيت صورة سامية مستمدة من دلالتها الدينية. ولم تكن حياة الفرد وحده هى التى ينبغى أن تتحول إلى مجموعة متسقة من الأعمال التى يتطلبها الله منه، بل إن المجتمع الإسلامى فى مجموعه كان ينبغى أن يتحول بالمثل، فصارت الدولة والجيش والخزانة (بيت المال) فى اصطلاح المؤمنين الأوائل دولة الله، وجيش الله، وخزانة (بيت مال) الله » .

و « ولفرد كانتول سميث » يكتب فى كتابه « الإسلام فى التاريخ لحديث Islam in Modern History » أربعين صفحة فى أول الكتاب من أروع ما كتب عن الإسلام، مفاهيمه وحضارته وقيمه ومبادئه ..

ولكن هذا لا يُكتب إنصافاً للإسلام والتاريخ الإسلامى كما قد يبدو للوهلة الأولى، وإنما على الطريقة الخبيثة، طريقة المديح المريح فى المبدأ للتخدير، تمهيدا لدس ما يراد دسه بعد ذلك من السموم.

فجرونيباوم يضع فى نفس الكتاب هذه المجموعة من المتناقضات والأكاذيب :

● أن الدين فى الإسلام معناه الآخرة ! (هذا مع أنه هو ذاته يقول فى نفس الكتاب إن الإسلام دين يشمل الدنيا والآخرة !) .

● وأن العلم الإسلامى كان مقصوداً به خدمة الدين – أى خدمة الآخرة! – ولهذا كانت العلوم التطبيقية من طب وكيمياء إلخ غير مرضى عنها من جمهرة المسلمين لأنها لا تخدم الآخرة! (ولم يفسر كيف نشطت إذن هذه العلوم وتقدمت تقدمها الهائل فى العالم الإسلامى وهى غير مرضى عنها من جمهرة المسلمين ؟!) .

● وأن فكرة « الدولة » ليست أصيلة فى الإسلام، إنما استمدت من الخارج، من الفرس والرومان!

● وأن تقدم العلوم الإسلامية راجع إلى عيب فى العقل الإسلامى! فهو عقل جزئى يدرك الجزئيات ولا يقدر على إدراك الكليات! ولهذا تقدم في البحث العلمى التجريبى وعجز عن إدراك « القوانين العلمية » التى أدركتها أوربا! (ويتغافل عن أن علم أصول الفقه مبنى كله على القواعد الكلية التى يستنبط منها الجزئيات والتفريعات. كما يتناسى أنه هو نفسه قال فى الكتاب ذاته إن العقلية الإسلامية استطاعت أن تستوعب الثقافة الهيلينية المبنية على الكليات! وهذا مثل من أمثلة التناقض الذى يقع فيه الشخص الواحد منهم فى الكتاب الواحد! لأنه لا تعنيه الحقيقة العلمية، ولا يبالى أن يناقض نفسه. إنما يهمه أن ينهش من هنا ومن هناك في وقت واحد! ففى الأولى يزعم أن العقلية الإسلامية عقلية جزئية تعجز عن إدراك الكليات فيغمز العقلية الإسلامية هنا غمزة، ثم يقول عكس ذلك تماما ليغمز المسلمين من ناحية أخرى بقوله إن حضارتهم كلها مستمدة من الثقافة الهيلينية، وليس لهم فيها أصالة ذاتية ! وفى سبيل الغمز من الشمال والغمز من اليمين لا يبالى أن يدلى « بحقيقتين! » متناقضتين فى آن واحد!!) .

أما سميث فما يكاد ينتهى من الأربعين الصفحة الأولى حتى يقول: **ولكن**.. ثم يمضى فى الاستدراك إلى آخر الكتاب الذى يقع في ثلثمائة وثمان صفحات، غير الفهارس والملحقات !

كلا ! ما يقصد المستشرقون حين يقولون قولة حق فى هذا الدين أن يقولوها لوجه الحق! أو لينصفوا بها هذا الدين ! إنما يقولونها لهذا الهدف الخبيث الذى قررته تلك الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب قبل ألف وأربعمائة عام: ﴿ **آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ [آل عمران: ٧٢] .

وليس أدل على هذه النية الخبيثة من قولة سميث فى كتاب « الإسلام فى

التاريخ الحديث » التى يبدى فيها حنقه الشديد على كتاب المسلمين الذين يستشهدون فى « دفاعهم » عن الإسلام بما يكتبه بعض المستشرقين فى صالح الإسلام ! ثم يقول فى غيظ ظاهر إن الكتاب الغربيين لا يكتبون هذا الكلام ليستخدمه المسلمون هذا الاستخدام [1] !!

ياعجبا والله !

أو لستم تكتبونه على أنه « حقيقة »؟! فماذا يعنيكم إذًا أن يستشهد به المسلمون؟!

كلا ! إنما يكتبونه لأنه العسل الذى يدسون فى داخله السم. فإذا قام مسلم يأخذ العسل وحده وينبذ ما فى أطوائه من السم فقد أفسد الخطة التى رسمتها « طائفة من أهل الكتاب » لفتنة المسلمين عن دينهم. ولم يعد للكلام المسموم أثره الذى يريدون، الذى يجعل المسلمين « يرجعون »! إنما يجعلهم يزدادون تمسكا بما يؤمنون. وهذا هو السبب فى ذلك الحنق العجيب من ذلك المستشرق العجيب!

* * *

من أعظم الأضاليل التى يستخدمها المستشرقون لفتنة المسلمين عن حقائق دينهم قولهم إن الإسلام انتشر بالسيف! وهى فتنة ضخمة ضللت كثيراً من المسلمين. وما تزال تضللهم وتحرج صدورهم إلى هذه اللحظة، وستظل كذلك إلى أن يفيء المسلمون إلى حقيقة دينهم، ويدركوا حقيقة تاريخهم، يستقونها من مصادرهم الإيمانية لا من كتابات المستشرقين ! ولقد قال الإمام أحمد من قبل : إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم!

لا يكاد يوجد واحد من المستشرقين لا يشير إلى هذه القضية ويتكيء عليها، بل إن أحدهم – ويدعى « روبرت بين » ألف كتابا كاملا فى « تاريخ الإسلام » سماه « السيف المقدس The Sacred Sword » وظل يردد فى كل فصل من فصوله أن الإسلام انتشر بالسيف !

---

(١) سنناقش كتابه بالتفصيل فى الفصل القادم .

فيما عدا واحدا (فيما أعرف) نفى هذه الأسطورة هو السير « ت. و. آرنولد T.W. Arnold ، فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام The Preaching of Islam » . ولكنه – وهو ينفيها – يصل إلى ذات الهدف الخبيث الذى يهدف إليه المستشرقون الآخرون فى هذا المجال. وهذا من أعجب ما تقوم به عصابة المستشرقين، أن يستخدموا الشيء وضده لتحقيق ما يريدون تحقيقه من إيحاءات سامة تخدخل تعلق المسلمين بدينهم وتاريخهم.

ونبدأ ببيان الزاوية التي ترصد منها الصليبية الصهيونية أحداث التاريخ الإسلامى، لأنها تلقى ضوءاً كاشفا على محاولات المستشرقين فى هذا الباب، وهدفهم الحقيقى من وراء هذا الإلحاح الشديد على هذه الفرية التى تخلط الحق بالباطل لتخرج منه ذلك المزيج المضلل المسموم :

﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾

[آل عمران : ٧١] .

روبرت بين يقول : إن المسلمين قد غزو الدنيا كلها من قبل، وقد يفعلونها مرة ثانية!

وولفرد كانتول سميث يقول : إن أوربا لا تستطيع أن تنسى ذلك الفزع الذى ظلت تزاوله عدة قرون والإسلام يجتاح الإمبراطورية الرومانية من الشرق والعرب والجنوب !

والمستشرق الألمانى كارل بكر يقول : إن الإسلام لما امتد فى العصور الوسطى أقام سدا منيعا فى وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » (١) !

ولورنس براون يقول : « الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى » (٢) .

---

(١) عن كتاب التبشير والاستعمار ص ٣١ (٢) المصدر السابق ص ٣٣ .

وجاء فى مجلة العالم الإسلامى البريطانية The Muslim World : إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى، ولهذا الخوف أسباب منها أن الإسلام منذ ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل دائما فى ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد..» (١).

كلام واضح الدلالة، ولو لم يصدقه المنهزمون من أبناء الجيل الحاضر، الذين صُنعوا على عين الصليبية الصهيونية وربوا على توجيهاتها، وطحنوا فى مطاحنها!

إنهم يرون العالم الإسلامى مهزوما فى كل الأرض تجاه القوة الغربية والحضارة الغربية، عاجزا عن أن يقيم كيانه الإسلامى، عاجزا عن أن ينفذ من الحصار الصليبى الصهيونى المحيط به فى إحكام، يريد أن يحرمه من الوجود أصلا إلا أن يقف تحت راية أخرى غير راية الإسلام.. قومية أو اجتماعية أو سياسية أو حتى جغرافية، ليست هى الإسلام على أى حال، فلا يصدقون أنهم يشكلون «خطرا» على الغرب!.

لقد عملت التوجيهات الصليبية الصهيونية خلال قرنين من الزمان على قتل اعتزاز المسلمين واستعلائهم، وإحلال الشعور بالضآلة والعجز والتفاهة مكان القوة والاعتزاز والاستعلاء، فلم يعودوا يحسون لأنفسهم وجوداً حقيقياً، أو يقدّرون أن لهم خطرا من أى نوع، أو وزنا فى خط سير الأحداث، أو «اعتبارا» لدى الغرب الظافر الكاسح المارد الجبار! وماذا هم، وماذا يمكن أن يكونوا إزاء قوم يملكون أسلحة الدمار الشامل، ويرسلون الصواريخ فى الفضاء ؟!

ومع ذلك فلو أن هؤلاء المنهزمين المستضعفين فتحوا أعينهم على خط سير الأحداث لرأوا الجانب الآخر من الصورة : كيف يتكتل العالم الصليبى الصهيونى كله ليسحق أية حركة إسلامية على وجه الأرض تحاول أن تحقق كيانها الإسلامى، وتقف تحت راية الإسلام الصريحة، ولا يعقل – بداهة – أن يسلك الغرب هذا السلوك لو لم يكن هناك خطر يحسه على وجوده من ذلك الإسلام !

---

(١) عدد يونية سنة ١٩٣٠ تحت عنوان «الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامى».

ودع عنك ما يحدث من التهويل فى تصوير الخطر الإسلامى فى وسائل الإعلام العالمية لتحريض الناس ضد الحركات الإسلامية، ودع عنك ضرورة إيجاد عدو خارجى يلوّح به للشعوب لكى تظل متماسكة مثابرة على العمل من أجل القضاء على ذلك «العدو» !

إن الغرب قد لا يخشى الحركات القائمة الآن، والتى يسعى لإخماد أنفاسها قبل أن تستكمل حيويتها وتمتد فى الأرض.. ولكنه يخشى المستقبل، ويعلم من طبيعة هذا الدين ما يجعله يخشى المستقبل !

يقول المستشرق الانجليزى «جب» إن أخطر ما فى هذا الدين أنه ينبعث فجأة، دون أن تعلم السبب فى انبعاثه؛ ولا المكان الذى يمكن أن ينبعث منه !

والله يقول: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ [البقرة:١٤٦].

وأشد ما يخشونه من هذا الدين هو روح الجهاد الكامنة فيه..

وإذ كان التشويه هو الوسيلة الأساسية التى تستخدمها الصليبية الصهيونية لدرء الخطر الذى تحسه من هذا الدين، فقد وجب أن تستخدم تلك الوسيلة لدرء الخطر **من كل مكامن الخطر** فى هذا الدين !

القرآن مصدر خطر.. فلتشوه حقيقته العلوية.

الرسول ﷺ مصدر خطر. فلتشوه صورته فى النفوس.

رجالات الإسلام مصدر خطر.. فلتشوه صورهم وأعمالهم ودوافعهم.

تاريخ الإسلام مصدر خطر.. فلتشوه حقائقه، وليكتب بصورة تطمس أضواءه.

الجهاد مصدر خطر.. فلتشوه حقيقته بكل وسائل التشويه !

والوسيلة – التى اختيرت للتشويه – هى القول بأن الإسلام انتشر بالسيف، وأن المسلمين كانوا يحاربون لإكراه الناس على اعتناق الإسلام !

أية صورة منفرة ! أن تشهر السيف فى وجه إنسان لتكرهه على اعتناق عقيدتك ؟!

أو لم يكن الأحرى بك - بوصفك صاحب عقيدة - أن تدعو إليها دعوة « سلمية » . . كالمسيحية مثلا ؟!

إنها خطيئة بشعة اقترفها المسلمون الأوائل - لا تدرى كيف !! ولكن لا ينبغى على أى حال أن تعود أبدا فى يوم من الأيام . . وفى هذا العصر بصفة خاصة، عصر « الحرية الدينية » لا ينبغى أن تكرر الخطيئة التى وقعت فى الزمن الغابر البعيد !

هكذا يفكر المنهرمون فى دخيلة أنفسهم بتأثير المكر الصليبى الصهيونى !

ثم يظل المكر الصليبى الصهيونى يحرج صدور المسلمين بتكرار التهمة والإلحاح عليها في كل مناسبة، ونشرها بكل وسائل النشر، فيفزع المسلمون من وطأة التهمة، وتنفعل بها نفوسهم، فيهبون « يدافعون » عن الإسلام !

كلا ! لم يستخدم الإسلام السيف إلا للدفاع، ولم يستخدمه قط فى الهجوم !

وهنا يسعفهم « ت . و . آرنولد » بكتاب « الدعوة إلى الإسلام » فيقول : « وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية . وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها، وكان النبى نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين، الذين وفقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار . على أنه ينبغى ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية فى قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، أو حتى فى مآثر المحارب المسلم، ذلك البطل الأسطورى الذى حمل السيف فى إحدى يديه، وحمل القرآن فى اليد الأخرى، وإنما نلتمسها فى تلك الأعمال الهادئة، التى قام بها الدعاة وأصحاب المهن ، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع فى الأرض . على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية فى نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع - بخلاف ما زعم بعضهم - حينما جعلت الظروف القوة

والعنف أمراً مستحيلاً، يتنافى مع الأساليب السياسية ، فلقد جاء القرآن مشدداً في الحض على هذه الطرق السلمية . . »[1] .

فيثبّت بذلك – في ظل المديح المريح المخدر للأعصاب – ذلك المعنى الذى تهدف الصليبية الصهيونية إلى تثبيته، وهو نفى السيف إطلاقا من حياة المسلمين !

مرة بالتشهير . . ومرة بالتخدير !

التشهير ينفر المسلمين من فكرة الجهاد، فيطردونها من أرواحهم وأفكارهم. والتخدير يقوم بنفس الدور! إذ يبعد عن أذهانهم « مآثر المحارب المسلم »، ذلك البطل « الأسطورى » الذى حمل السيف فى إحدى يديه . وحمل القرآن فى اليد الأخرى !

ويلتقى التشهير والتخدير عند هدف واحد تسعى إليه الصليبية الصهيونية هو إبعاد خاطر الجهاد عن نفوس المسلمين، خوفا من أية حركة بعث إسلامى تلجأ إلى الجهاد فى يوم من الأيام !

* * *

إن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يزعم المستشرقون .

وما كان للرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين أن يخالفوا تعاليم القرآن الصريحة التى لا تحتمل اللبس ولا التأويل : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

واستخدم الإسلام السيف مع ذلك – بأمر من الله – لإزالة القوى المادية والسياسية والعسكرية التى تقف فى سبيل الدعوة السلمية، وتحول – بالضغط أو الإرهاب أو التضليل الفكرى والروحى أو غير ذلك من الوسائل – بين الناس وبين التعرف على الدعوة الربانية . فإذا أزيلت تلك القوى الحاجبة الباغية، فالناس أحرار بعد ذلك فى أن يعتنقوا الإسلام أو يبقوا على عقيدتهم بغير إكراه، بشرط واحد هو ألا يعتدوا على المسلمين !

---

(١) ص ١٩ – ٢٠ من الترجمة العربية لحسن إبراهيم حسن وزميليه .

ذلك هو الفاصل بين الحق والباطل فى قضية استخدام السيف.

إن المسلمين لم يستخدموا السيف قط لإكراه الناس على اعتناق الإسلام. والدليل الذى لا يقبل الشك أن المسلمين حكموا الأندلس ثمانية قرون فلم يحدث مرة واحدة أن أكرهوا فردا واحدا على اعتناق الإسلام، إنما دخل من دخل فى الإسلام طواعية وحبا واقتناعا وتأثرا بالحضارة الإسلامية الزاخرة. وحكم المسلمون الهند ثمانية قرون فلم يجبروا حتى عباد البقر على ترك ديانتهم. ووجود نصارى إلى هذه اللحظة فى مصر والشام بعد أربعة عشر قرنا من الحكم الإسلامى دليل لا يقبل المماحكة. ولم يحدث قط فى ظل الحكم الإسلامى أن قامت حرب إبادة كالتى أقامها النصارى فى الأندلس قديما، وفى البوسنة والهرسك وكوسوفا فى الوقت الراهن.

ولكن المسلمين استخدموا السيف – بأمر ربهم، لا من عند أنفسهم – لإزالة الطغيان الذى يمنع الناس من رؤية الحق، متمثلاً فى ذلك الوقت فى فارس والروم، ليتسنى للناس أن يروا الحق بلا حاجز من سلطة مرهوبة متمثلة فى نظام تقوم عليه دولة وتحميه جيوش، يجثم على قلوب الناس بثقل الأمر الواقع، فلا يجعل أشعة النور تصل إلى تلك القلوب، حتى إذا أزيل ذلك الحاجز، ورأى الناس النور على حقيقته، فهم أحرار فى أن يتبعوه أو يعرضوا عنه، فإن القلوب لا يمكن أن تكره على الإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إنما يقوم المسلمون بالدعوة إلى الله، فمن استجاب فهو أخ فى الإسلام، ومن لم يستجب فحسابه على الله، ويعطيه الإسلام حق الوجود، وحق العبادة بحسب ما يعتقد، وحق الحركة والنشاط فى الأرض، بشرط ألا يعتدى، فالعدوان لا تقبله شرائع السماء.

أما النظام والدولة والجيوش فلها شأن آخر. إنها حواجز تحجز النور، ورهبة ترهب القلوب، وثقل يعجز الناس بقوتهم الذاتية عن تحريكه. فيأمر الله الأمة المسلمة بإزالة الحاجز، وإزالة الرهبة، وإزالة الثقل، ليفتح الناس بصائرهم، ثم يختاروا ما يحبون، أحرارا غير مكرهين.

ونضرب مثالاً من واقع العالم المعاصر، يبين هذا الأمر بوضوح.

كم ضج العالم كله - والعالم الغربى بصفة خاصة - من الشيوعية، والفتنة بالشيوعية فى أوساط الشباب خاصة؟ وكم أنفق من الجهد والمال لمقاومة الخطر الشيوعى الذى كاد فى يوم من الأيام أن يقلب العالم رأساً على عقب ؟!

فلما انهارت الدولة التى تحمى الشيوعية فماذا حدث ؟!

هل يحتاج أحد اليوم أن ينفق دقيقة من وقته، أو ذرة من ماله أو جهده لمقاومة «الخطر الشيوعى»؟ هل بقى من الشيوعية شىء يفتن الشباب أو غير الشباب، أو يخشى منه على ذوى الألباب ؟!

هذا مثال من الواقع المعاصر يوضح لنا كيف تكون قوة الباطل حين تكون له دولة تقوم عليه وجيوش تحميه، وكيف يؤثر الباطل فى وجدانات الناس فيحجبهم عن رؤية الحق، لا لأنه غير موجود، ولكن لأن الأبصار تغشيها غشاوة، والقلوب يرين عليها ثقل الأمر الواقع، فتتوهم أنه حق وهو باطل، وتتوهم أنه لا يزول وهو زائل، وتتوهم فيه الخير وهو شر ما حق.. فإذا أزيلت قوة الباطل فكأنما يولد الناس من جديد: فتزول الغشاوة من العيون، ويزول الران من القلوب، ويزول الوهم عن العقول.. ثم يختار الناس لأنفسهم ما يختارون، وعندئذ يتحقق الأمر الربانى:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٥٦].

ذلك حكم الله فى القضية، وذلك منهجه الذى قام المسلمون بتطبيقه، وما أبعد هذه الحقيقة الواضحة عن تخرصات المستشرقين، والمستغربين الذين يتبعون نعيق المستشرقين !

وما نحتاج كذلك أن نناقش أولئك المستشرقين فى دعواهم أن المسيحية كانت دعوة «سلمية»! وربما يكفى أن نذكر قولة «ت.و. آرنولد» نفسه فى هذا المجال:

« وفى بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس « ليودجر Liudger » والقديس « ويليهاد Willehad » بين السكسونيين الوثنيين، أكثر مما نصغى إلى أخبار التعميدات المسيحية التى كان شارلمان يفرضها عليهم بحد السيف. وكان المبشرون فى بلاد الدانمرك، وهم القديس « أنسجار Ansgar » وخلفاؤه أحق بصفة التبشير من الملك « كنوت Cnut » الذى استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب. وعلى الرغم مما صادفه القسيس « جوتفريد Gottfried » والأسقف « كريستيان Christian » من نجاح فى تنصير البروسيين الوثنيين، وكان نجاحهما أقل ممن سبقهما: كانوا بحق أكثر تمثيلا لنشر الدعوة من جماعة « إخوان السيف Brethren of the Sword » وغيرهم من الصليبيين الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار. ولقد فرض فرسان « Ordo Fratrum Militise » المسيحية على شعب ليفونيا فرضا... فكما أن الدين المسيحى لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التى اتخذها فى فيكن Viken » (القسم الجنوبى من النرويج) الملك « أولاف ترايجفيسون Olaf Trygvesson » الذى كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول فى المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، وبنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين فى فيكن بأسرها... فكذلك ظهر دعاة مسلمون [١]..» [٢].

* * *

من وسائل التضليل كذلك الإيحاء بأن الإسلام شىء من « تراث » الماضى، جاء فى دوره التاريخى، وانقضى بانقضاء ذلك الدور.

وهو إيحاء له أهميته عند الصليبية الصهيونية، لعلها تأمن عن طريقه أشد ما تخشاه من مخاطر هذا الدين!

إن الخطر الأكبر كما عبر عنه روبرت بين، ولورنس براون، وجب، وكثيرون غيرهم، هو قدرة هذا الدين على « الانبعاث » !

---

(١) أى يدعون دعوة سلمية بلا عنف. (٢) ص ٢١ – ٢٢ من الترجمة العربية.

وهى قدرة عجيبة حقا !

لقد تعرض هذا الدين في تاريخه لعدد من الضربات القاصمة، لم يكن غيره ليصمد لها، ولا لينجو منها.

فإذا تجاوزنا الهزة الأولى التى حدثت عند وفاة الرسول ﷺ. إذ ارتدت قبائل بكاملها عن الإسلام، وجندت جيوشها لمحاربة المسلمين.. وإذا تجاوزنا الفتنة الكبرى التى حدثت أيام عثمان رضى الله عنه، وأحدثت فى الأمة صدعا ظل يؤثر في التاريخ كله، وإذا تجاوزنا الانحرافات التى حدثت فى سياسة الحكم وسياسة المال على أيدى الأمويين ثم العباسيين ثم العثمانيين..

إذا تجاوزنا هذا كله وجدنا الضربات القاصمة فى الحروب الصليبية المتتابعة لمدة قرنين من الزمان فى العصور الوسطى، وغزوة التتار المهلكة المدمرة، ثم طرد المسلمين من الأندلس بعد تعذيبهم وتحريقهم وتقطيعهم وتصليبهم ومتابعة من بقى متخفيا منهم على مدى مائتى عام، ثم الغزو الصليبى الصهيونى فى العصر الحديث منذ طرد المسلمين من الأندلس حتى هذه اللحظة..

ومع ذلك ينبعث الإسلام فى كل مرة بقوة عجيبة ويمتد فى الآفاق !

يمتد بلا مدد ولا قوة ولا سلاح !

ولطالما شكت بعثات التنصير فى أفريقية من أنها تبذل جهودا جبارة تنفق فيها الملايين، ثم يجيء تاجر مسلم، يمر بالقرى مرورا ليعرض بضاعته، فإذا الإسلام ينتشر فى أثره، ويصبح الناس مسلمين!

خطر ينبغى للصليبية الصهيونية أن تعمل حسابه، وتحاول مواجهته بما يقف فى سبيله.

وإحدى الوسائل هى الإيحاء بأن الإسلام شيء من تراث الماضى، لا من الحاضر ولا من المستقبل، لعل ذلك يصرف الدعاة، أو يصرف المدعوين !

ولقد كان الحكم الصليبى البريطانى فى مصر حريصاً كل الحرص فى السياسة التعليمية التى وضعها القسيس دنلوب، على ترسيخ هذا المعنى فى

نفوس الطلاب المسلمين، سواء طلبة الابتدائية أو الثانوية أو مدرسة المعلمين العليا التى تخرج المعلمين لكل المواد ما عدا اللغة العربية.

كان يدرس لهم أن الإسلام نزل في قوم وثنيين يعبدون الأصنام فدعاهم إلى عبادة الله الواحد، وكانوا يئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بنشر الدعوة فنشروها فيما نشروه فيها من أقطار.

ومن ثم يكون الإسلام «منتهيا» فى حس الطالب الذى يتلقى هذه المعلومات. فلم يعد من حوله أولئك الوثنيون الذين يعبدون الأصنام الذين توجَّه إليهم الدعوة (وقد حجب الاستعمار عنه وجود الملايين من الوثنيين فى إفريقيا وآسيا الذين يمكن أن توجه إليهم الدعوة، كما صرف من خاطره إمكان لانتقال إلى هؤلاء لدعوتهم!) ولم يعد هناك من يئد البنات ليحتاج إلى الإسلام لينهاه عن ذلك. أما الخمر والميسر فقد نهى عنهما الإسلام فاستجاب من استجاب وعصى من عصى وانتهت القضية لأنها فى الوقت الحاضر تدخل فى دائرة الحرية الشخصية يتصرف فيها كلٌ بما يراه، وأما غارات السلب والنهب فأجهزة الدولة تقوم الآن بمنعها باسم الأمن ولم يعد لها علاقة بالدين. وأما نشر الدعوة فلا مجال للمسلمين اليوم إليه فى الظروف التى تحيط بهم وبالعالم كله، فهى قضية تحكمها الأحوال السياسية والعسكرية وهى بالنسبة للمسلمين أسوأ الأحوال [1]!

وهذا الذى حرص الاستعمار الصليبى على بثه فى نفوس الطلاب فى المدارس، هو الذى يحرص جهاز الغزو الثقافى الذى يمثل المستشرقون جانبا مهما منه على بثه في نفوس «المثقفين» مع التوسع فى الفكرة بما يناسب أولئك المثقفين الذين تثقفوا على يد الاستعمار الصليبى وتشربوا سمومه. فقد حرص ذلك الجهاز على حجب حقيقة الإسلام الدائمة الممتدة، التى لا تنتهى ما بقى البشر على الأرض، وأعطى صورة منتهية الصلاحية لا مكان لها فى حياة الناس الآن.. صورة محدودة ضئيلة محكومة بفترة معينة من التاريخ، وأوضاع قوم من البشر – كانوا – يعيشون فى وقت من الأوقات فى رقعة معينة من الأرض!

---

(١) انظر إن شئت حديثا أكثر تفصيلا فى هذه القضية فى كتاب «واقعنا المعاصر».

وبذلك يتحدد الإسلام فى نفوس أولئك المثقفين، وتنتهى مهمته فى حياتهم. ولا يبقى منه إلا « صلة العبد بالرب » فى صورة شعائر دينية يقوم بها « الاتقياء » من الناس إذا شاءوا، ومن لم يشأ فلا حرج عليه! وفى الوقت ذاته تملأ الحضارة الأوربية (المسيحية) الفراغ الذى يتركه انحسار الإسلام فى النفوس!

نفس الشيء الذى قرره المعتمد البريطانى اللورد كرومر من قبل، وعهد بتنفيذه للقسيس دنلوب، وللمستشرقين !

« إن واجب الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هو تثبيت دعائم الحضارةالمسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من واجبه – منعا من إثارة الشكوك – ألا يعمل على تنصير المسلمين. وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدين الإسلامى كعطلة الجمعة والاحتفالات الدينية، وما شابه ذلك » !

إن « الإسلام » ليس شيئا مختلفا عن « الحياة » بالنسبة للمسلم الحقيقى، لا « المسلم » المصنوع على يد الصليبية الصهيونية، المتغذى بسمومها !

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ . . . ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] .

إنه – من جهة – يمتد فى نفسه بحيث يشمل كل لحظة من لحظات حياته الواعية، وكل عمل وكل تصرف وكل شعور. ومن جهة أخرى يمتد فى واقع الحياة بتعاليمه وتوجيهاته ومبادئه وقيمه بحيث يشمل كل الواقع المعاش بكل مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والعلمية، فلا ينفصل مجال واحد من المجالات عن الإسلام. ومن جهة ثالثة فهو المنهج الربانى، الذى يشمل كل جوانب الحياة على المستوى الأعلى الذى ينشىء « الإنسان الصالح » ويحرره من كل عبودية لغير الله، فينطلق بانيا عاملا فى عمارة الأرض بنشاطه كله، متطلعا فى الوقت ذاته إلى اليوم الآخر ورضوان الله :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] .

obeikandl.com

وهو بهذه المعانى شىء لا ينتهى ما دامت الحياة [1] !

ثم إنه – من جهة أخرى – لم ينته بالفعل فى واقع الحياة البشرية .

حقيقة إن الفترة المثالية الأولي، التى ارتفع فيها البشر المسلمون على أنفسهم ارتفاعا يشبه المعجزات، وحققوا فى أنفسهم تلك البطولات والعظمات النادرة فى التاريخ . . هذه الفترة لم تكن طويلة الأمد، وهبط الناس من هذا الارتفاع السامق درجات من الهبوط، وانحرفوا عن سبيل الإسلام المستقيم أنواعا من الانحراف .

ولكن الإسلام ذاته لم ينته يومذاك، كما يصر المستشرقون على تثبيت هذه الفكرة فى كثير مما يكتبون .

لقد انحسرت الصورة المثالية عن رقعتها الواسعة الشاملة الممتدة إلى أقصى الآفاق، وبقيت الصورة العادية للإسلام (وإن لم يخل جيل من أجيال الإسلام من نماذج رفيعة تذكّر بالجيل الأول) . ولكن هذه الصورة العادية ظلت – بالنسبة لحياة البشر خارج الإسلام – شيئا رفيعاً جدا، وظلت قرونا متطاولة تمد البشرية كلها بالمفاهيم العالية البانية التى تحفز خطاها إلى الأمام .

فهذا الإسلام – العادى – هو الذى أنشأ « المنهج التجريبى فى البحث العلمى » الذى تقدم بالعلم أشواطا واسعة، وتتلمذ عليه علماء أوربا ليقيموا نهضتهم العلمية الحاضرة، وإن كانت هذه النهضة حين تولاها غير المسلمين، الذين لم يتربوا على منهج الله، لم ترتفع إلى الأفق الإنسانى الخيّر الذى كانت به لدى المسلمين، فراحت إلى جانب عملها فى نواحى الخير، تعمل على تدمير الحياة روحيا وخلقيا وماديا بصورة لا يصنعها إلا الشيطان وأولياء الشيطان، سواء فى نشر الالحاد « العلمى !! » أو حصر الإنسان فى محيط ما تدركه حواسه كالحيوان، أو نشر الفوضى الخلقية، أو إنتاج أسلحة الدمار الشامل .

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « مفهوم لا إله إلا الله » من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » وفصل « مقتضيات لا إله إلا الله » من كتاب « لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة » .

وهذا الإسلام – العادى – هو الذى أنشأ مفهوم «الأمة» بمعنى المجموعة من البشر الملتقين فى «عقيدة» مشتركة، وتتلمذت أوربا على هذا المفهوم عند احتكاكها بالمسلمين فى الحروب الصليبية، فخرجت من حياة الإقطاع الذى لم يكن البشر فيه يتمثلون فى «أمة» وإنما فى إقطاعيات يحكم كلا منها سيد إقطاعى تتمثل فيه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، وتنفصل عن غيرها من الإقطاعيات انفصالا يكاد يكون تاما، فضلا عن انفصال الناس فيه عن الكيان الحقيقى للإنسان، إذ هم عبيد لذلك الإله الصغير صاحب السلطان المطلق عليهم.. وإن كانت أوربا حين خرجت من نظام الإقطاع ودخلت فى نظام الأمة لم ترتفع إلى المفهوم الإسلامى الشامل، ولم تفهم أن «الأمة» إنما تجتمع على العقيدة فى الله، فراحت تنشىء «أممها» على أساس قومى لا تتمثل فيه الحقيقة العليا للإنسان. ومن ثم راحت تلك «الأمم» غير المستوفية لكيان الإنسان الأعلى تحدث من الشر على وجه الأرض أضعاف ما تحققه من النفع، من خلال الصراعات والحروب، والاستعمار والاستعباد.

وهذا الإسلام – العادى – هو الذى وضع قواعد التعامل الدولى بين الأمم والأفراد والجماعات، وهذا لم تتعلمه أوربا إلا فى عالم النظريات، بينما كان الإسلام – العادى – يحققه في عالم الواقع حتى مع الصليبيين الذين يغدرون ويفجرون كلما واتتهم الفرصة للغدر والفجور!

وهذا الإسلام – العادى – هو الذى أنشأ مجتمعا ظل متكافلا عدة قرون، يكفل فيه القادرون غير القادرين، وتنفق فيه أموال وتحبس فيه أوقاف لنشر التعليم المجانى، والعلاج المجانى، وإيواء العجزة، والرفق بالحيوان، قبل أن تعرف أوربا تلك المعانى كلها بأكثر من ألف عام!

وهذا الإسلام – العادى – هو الذى أنشأ مجتمعا كان أقل المجتمعات شرب خمر، وأقلها وقوعا فى الفاحشة، وأقلها انغماسا فى الجريمة، وأقلها أمراضا نفسية وعصبية وقلقا وانتحارا لأنها تؤمن بالله، وتطمئن لقدر الله.

والإسلام – بهذا – لا ينتهى فى عالم المفاهيم، كما أنه لم ينته فى عالم

الواقع إلى هذه اللحظة، على الرغم من كل ما أصابه من ضعف وانحسار وتراجع.. **بل إنه ينبعث من جديد** !

ولكن الصليبية الصهيونية وجهازها الخاص بالغزو الفكرى، المتمثل فى المستشرقين، لم تكن بطبيعة الحال لترسم للإسلام هذه الصورة التى تفيد الامتداد، وهى تحرص كل الحرص على محاولة قتله ومنعه من الامتداد! إنما ترسم له تلك الصورة التاريخية التى تتمثل فى فترة محددة من التاريخ، فى قوم معينين، فى ظروف معينة قد انتهت من زمن بعيد.. وأما فى الوقت الحاضر فلا مجال له إلا أن يكون علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة !!

* * *

وكما أوحى المستشرقون إلى المسلمين بأن الإسلام تراث تاريخى قد انتهت مهمته وأصبح فى ذمة التاريخ، كذلك ألحوا فى القول بأنه دين «عربى»، مطبوع بطابع العرب، ومفصل على قدهم !

ولهم فى ذلك مآرب شتى..

فالقول بأن الإسلام دين عربى يُرْبَطُ دائما بأنه من صنع محمد ﷺ وليس وحيا من عند الله!

ويربط بأنه يشتمل على الصفات العربية بمحاسنها ومساوئها، والمساوئ هى المقصودة بطبيعة الحال! فإذا كانت العقلية العربية – فى زعمهم – عقلية جزئية لا تقدر على الشمول ولا العمق، فقد جاء القرآن، المنسوب إلى محمد ﷺ ممثلا لتلك الخاصية، فجاء مفرقا موزعا لا يربط بينه رابط! فوق أنه متأثر «بعيب» آخر فى العقلية العربية، هو القفز السريع من موضوع إلى موضوع ! ومعالجة الأمور فى لمحات خاطفة كالبرق، تسطع، ولكن لا استمرار لها ولا عمق [1] !

---

(١) هناك دراسات كثيرة عن «الوحدة الموضوعية» فى سور القرآن فى متناول من أراد الإطلاع على هذا الجانب للرد على تخرصات المستشرقين فى هذا الشأن. وانظر إن شئت كتاب «دراسات قرآنية».

ويربط بأنه كان تحقيقا لرغبة العرب فى التجمع فى «قومية» تربطهم وتوحدهم، أى أنه نتاج محلى بحت – فوق أنه صناعة بشرية بحتة! – نتاج تولد فى ضمائر العرب، ثم تمخض عن إبراز «زعيم» عربى، تلتقى في نفسه خلجات ضمائر العرب، وتتجسد فيه أمانيهم، فيوحد هذه الأمة، ويطلق طاقتها التى كانت مبددة فتجمعت، فصنعت ما صنعت !

ويربط بأنه دين بدوى غير متحضر، يحمل طابع العرب الحفاة الجفاة الذين لم تهذبهم الحضارة، ومن ثم فهو لا يصلح لحياة المدينة فى القرن العشرين !

ويربط بأن تقاليده وتشريعاته – بالنسبة للمرأة خاصة – هى تقاليد البيئة العربية التى تجعل السلطان للرجل، وتوثق عرى الأسرة ولكن تحت رعاية الرجل وسيطرته، ومن ثم فهو لا يصلح للأجيال «الحضارية» التى حررت المرأة من ذلك السلطان !

ويربط بأنه دين مفصل على حاجات الطبيعة العربية ومطالبها وأمزجتها فلا يصلح لغير العرب !

والهدف من وراء هذا الربط – إلى جانب التشويه، الذى هو السمة العامة فى الجهد الاستشراقى كله – هو محاولة وقف المد الإسلامى في الشعوب غير العربية فى آسيا وأفريقيا، ذلك المد الذى تفزع منه الإرساليات التنصيرية فى تلك البقاع، وتستصرخ الدول ذات الشأن للعمل علي وقفه بكل سبيل!ولأن القضية قضية سياسية – صليبية صهيونية – لا قضية «علمية» فإن السادة «العلماء» يغفلون كل دلالات التاريخ.. ولا يبالون !

يغفلون أن القرآن نص على عالمية الدعوة فى وقت مبكر جداً، فى السور المكية التى نزلت والمسلمون لا يزيد عددهم على أفراد. وحتى أولئك الأفراد لم يكونوا ممكنين مستقرين، بل مضطهدين مشردين مقهورين، يواجهون حرب قريش لهم، وتضييقها عليهم، بغير معين لهم من البشر. ومهما يجمح خيال بشر – حين يكون هو صانع هذا الدين ومؤلف قرآنه (!) – فلا يمكن أن تتجه مشاعره ولا أفكاره إلى العالم كله، وهو بعد لم يثبت أقدامه فى موطنه الأصلى،

بل فى بقعة صغيرة منه هى مكة المكرمة ! ولا يترك له أعداؤه فرصة إسماع صوته إلى عشيرته الأقربين – فضلا عن بقية العرب – لأن عشيرته الأقربين هم أول الأعداء المحاربين !

يقول تعالى في سورة التكوير، وهى من أوائل السور المكية: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [التكوير: ٢٧] .

وفى سورة المدثر – وهى مكية – ﴿ **إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيراً لِّلْبَشَرِ** ﴾ [المدثر: ٣٥ – ٣٦].

وفى سورة الأنبياء – وهى مكية – ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفى سورة سبأ – وهى مكية – ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ [سبأ: ٢٨].

وفى سورة الأعراف – وهى مكية – ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً . .** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

ويغفلون أن الإسلام قد امتد بالفعل فشمل العرب وغير العرب منذ صدر الإسلام إلى اليوم، فكان من بين «الأفراد» الذين آمنوا بلال **الحبشى**، وصهيب **الرومى**، وسلمان **الفارسى**، ثم انتشر الإسلام فشمل الفرس والهنود والصينيين والروس، والترك والمغول والتتار والبربر والزنوج، كماشمل الأوربيين فى الأندلس والنمسا والبلقان.. وفى كل بلد من بلاد الأرض بلا استثناء توجد جماعات تعتنق الإسلام !

فكيف حدث ذلك؟ أو ليست له دلالة؟

وإذا كان العرب قد فتحوا بعض البلاد فأخضعوها لحكمهم، فاعتنق أهلها دين الأمة الغالبة، فما بال الأقوام الذين دخلوا الإسلام بغير فتح فى أندونيسيا والملايو وفى أفريقيا فيما يلى الشمال الأفريقى إلى الجنوب؟ بل ما بال التتار – الدين جاءوا ليدمروا الإسلام ويقضوا عليه – ما بالهم بعد أن شبعوا تقتيلا وتذبيحا فى المسلمين، أسلموا هم أنفسهم، واعتنقوا دين الأمة المغلوبة؟!

أو ليس يدل ذلك على أن هذا الدين يخاطب «الإنسان» – نوع الإنسان – فيستجيب من شرح الله له صدره من بنى الإنسان ؟!

أم لا تستحى هذه الناس وهى تردد تلك الأضاليل ؟!

ولو كان الإسلام هو نتاج البيئة العربية ولا زيادة، فأى شىء دفعه إلى تحرير «الإنسان» من العبودية لغير الله، وإخلاص العبادة لله وحده بلا شريك!

﴿ يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريم * الذي خلقك فسوَّاكَ فعدلك * في أي صُورةٍ مَا شاء ركَّبكَ ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨].

أى شىء فى تلك البيئة يومئذ – بل فى الأرض كلها يومئذ – يوجه الناس إلى العقيدة الصافية التى تنزه الله تنزيها خالصا، وتنفى كل ألوان الشرك عن الله جل جلاله؟

الوثنيات حول الجزيرة؟ أم اليهود والنصارى؟

فأما الوثنيات فى فارس والهند وغيرهما فقد كانت غارقة فى نفس الضلالة التى غرق فيها العرب، فلم يكن من الممكن أن تكون مصدر التوجيه إلى ذلك التنزيه الخالص الذى جاء به الإسلام، وتحرير «الإنسان» بذلك من كل عبودية لغير الله، وإطلاقه من ثم – وقد تحرر وجدانه التحرير الحقيقى – ينشىء الخلافة الراشدة فى واقع الأرض.

وأما اليهود والنصارى فهم الذين كانوا يقولون عزير ابن الله والمسيح ابن الله، فكيف يكونان هما مصدر هذا التنزيه الخالص الذى تميز به الإسلام؟

وأى شىء فى تلك البيئة الجاهلية - بل فى الأرض كلها يومئذ - كان يدفع لتحرير «الإنسان» من العبودية للسلطان، بحيث يقول أبو بكر رضى الله عنه: «أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم» فيكون هذا هو دستور الحكم الإسلامى الذى يؤكده عمر رضى الله عنه فيقول: «إن أصبت فأعينونى وإن وجدتم فىّ اعوجاجا فقومونى» فيقول له سلمان رضى الله عنه: «والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف» فيحمد عمر رضى الله عنه ربه أن جعل فى رعيته من يقوّمه بحد سيفه !!

ألبيئة العربية ؟! أم الفرس والروم ؟!

فأما البيئة العربية فقد كان « شيخ القبيلة » فيها سيداً مطاعا لا يناقش ولا يجرؤ أحد على عصيان أوامره، بل كانت القبيلة ذاتها ربا يعبد، فيقول القائل فى إحدى تلك القبائل:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد !

وكانت قريش في تلك البيئة طاغوتا يحل الشهر الحرام فتطيعه العرب، ويشرع لبعض الناس أن يحجوا البيت عرايا - رجالا ونساء - فيحجون ! والإسلام هو الذى أذهب طغيان قريش، وجعل ذلك الحاكم القرشي يقول: إن وجدتم فيّ اعوجاجا فقومونى !

وأما الفرس والروم فقد كانوا يؤلهون حكامهم تأليها، ويقدمون لكسرى وقيصر من الشعائر ما لا يجوز أن يوجّه إلا لله، من ركوع وسجود، وطاعة بلا حدود!

وأى شيء في تلك البيئة الجاهلية كان يدعو إلى تحرير المرأة بصفة خاصة من العبودية الذليلة التى تعيشها فى ظل الجاهلية؟ ما الذى قد تغير فى تلك الجاهلية لتنقلب من سوء معاملتها للمرأة سواء بوأدها حية أو سوء استقبالها: ﴿ وإِذَا بُشِّرَ أَحدُهُم بالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ من سُوءِ ما بُشِّر به أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ ﴾ [النحل: ٥٨ ، ٥٩] أو حرمانها من الميراث أو جعلها هى ذاتها من الأشياء التى تورث، أو اتخاذها إلى جانب ذلك كله شهوة دنسة للرجل المزهو بحيوانيته، إلى تقرير كيان إنسانى مساوٍ لكيان الرجل الإنسانى !

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .. ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴾ [النساء: ٧].

﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ [النساء: ١٩].

﴿ خيركم خيركم لأهله .. ﴾ [أخرجه الترمذى].

﴿ استوصوا بالنساء خيرا ﴾ [أخرجه مسلم].

وأى شيء فى تلك البيئة كان يدعو إلى تحرير الرقيق، سواء بتجفيف منابعه كلها (ما عدا رق الحرب) (١) أو بالعتق أو المكاتبة، وقد كان العالم كله يومئذ، وإلى سبعة قرون تالية لمجيء الإسلام لا يرى أى غضاضة لا فى اتخاذ الرقيق، ولكن فى سومه سوء العذاب، والرق الروماني الشهير معروف فى التاريخ..

وأى شيء فى تلك البيئة كان يدعو إلى تحريم الربا والخمر والميسر والفاحشة، وكلها كانت تسرى فى تلك البيئة سريان الأمر الطبيعى الذى لا يستنكر، بل يتفاخر بها:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى   وحقك لم أحفل متى قام عوّدى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة   كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرّى إذا نادى المضاف محنبا   كسيد الغضا – نبّهته – المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب   ببهنكة تحت الطراف المعمد (٢)

لو كان هذا الدين « عربيا » من صنع رجل « عربى » ونابع من البيئة

---

(١) حتى رق الحرب كان معاملة بالمثل للأعداء الذين كانوا يسترقون من يقع فى أيديهم من الأسرى المسلمين.

(٢) الأبيات لطرفة بن العبد. يفخر فيها بشرب الخمر، وحضور الوغى، وإتيان الفاحشة.

obeikandl.com

« العربية » ومفصل على تقاليد « العرب » وعاداتهم، فمن أين استقى ذلك المنهج المتفرد فى التاريخ، الذى ما يزال متفردا فى التاريخ ؟!

أم لا تستحى هذه الناس حين تردد هذه الأضاليل [1] ؟!

* * *

ولا يقل سخفا عن ذلك ما يقوله الفريق الآخر من المستشرقين الذين ينفون عن الإسلام أنه دين عربى، ويقررون أنه قلب معايير البيئة العربية كلها، ليزعموا أن الرسول ﷺ قد استقاه من اليهود والنصارى والفرس والروم ! فقد رأينا فى الفقرات السابقة أن اليهود والنصارى والفرس والروم لم يكن لدى أى واحد منهم، ولا لديهم مجتمعين، ما يعطونه لهذا الدين أو يوجهونه إليه. وأنه اتجه غير وجهتهم فى حقائقه الرئيسية كلها.

قام على التنزيه المطلق لله، ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقام على تحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله – بما فى ذلك عبودية التشريع – بينما اليهود والنصارى ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ [التوبة: ٣١].

وقام على إزالة التقديس والتأليه للحاكم، وكانت الفرس والروم تؤله حكامها.

وقام على نظام اقتصادى اجتماعى لم يعرفه اليهود ولا النصارى ولا الفرس ولا الروم، وما زالت البشرية لا تعرفه فى شموله وتوازنه، وهى تتخبط ذات اليمين وذات الشمال ما بين دكتاتورية رأس المال مرة، ودكتاتورية البروليتاريا مرة، وطغيان الفرد مرة، وطغيان الجماعة مرة.

ولكن السادة « العلماء » لا يناقشون قضية علمية! إنما هى قضية صليبية صهيونية يراد بها إفساد حياة المسلمين، وصرفهم عن التمسك بالإسلام!

* * *

---

(١) سنعود إلى مناقشة الموضوع مع « مرو برجر » فى كتابه « العالم العربى اليوم » فى الفصل القادم.

يتصل بالأضلولة السابقة أضلولة أخرى يتناقض موقف المستشرقين فيها كذلك من أقصى اليمين لأقصى اليسار، ليحاولوا الهدم من هنا ومن هناك فى ذات الوقت !

الإسلام دين رجعى جامد متأخر، لا يصلح للتطبيق فى الوقت الحاضر، وهو – بصفة خاصة – يكبّل المرأة بالقيود، ولا يسمح لها بالتحرر والانطلاق، لتشارك الرجل فى كل شىء، باعتبارها نصف المجتمع!

الإسلام دين متطور يستطيع مسايرة الحياة الحديثة بتطوير مفاهيمه وشرائعه وأحكامه بما يناسب الحياة المتطورة. وهو يكفل للمرأة كل وسائل التحرر والانطلاق!

كلا الفريقين من المستشرقين يؤدى – من جانبه – دوره فى هدم هذا الدين!

فأما القولة الأولى، وهى الغالبة على أقوال المستشرقين فى الماضى، وما تزال تُردّد حتى اليوم، فالمقصود منها ظاهر بطبيعة الحال، وهو تنفير المسلمين من دينهم، ودعوتهم إلى الانسلاخ منه، هرباً من تهمة الرجعية والجمود، ويالها من تهمة لا يصمد لها إلا أولو العزم من البشر!

وقد فعلت هذه القولة فعلها على يد المنصرين من قبل، فى الطور السابق على الاستشراق (العلمى) إذ كانت من أخبث الأسلحة التى استخدمها أولئك المنصرون لفتنة المسلمين عن دينهم.

وكان أشد ما استخدموا فيه ذلك السلاح الماكر هو التركيز على حاضر المسلمين، وتخلفهم العلمى والحضارى والمادى، وضعفهم السياسى والحربى.. وإرجاع السبب فى ذلك كله إلى الإسلام! والدعوة الخبيثة من جانب آخر إلى أخذ الحضارة الغربية (أى المسيحية!) إذا رغب المسلمون فى التقدم والقوة والتحضر.

ثم جاء المستشرقون فأخذوا اللعبة جاهزة من يد المنصرين، واتكأوا عليها بوسائل «علمية!».

والوسائل «العلمية» تقول إن الإسلام قد انطبع بالطابع البدوى فى تشريعاته وتوجيهاته – لأن هذه هى طبائع الأشياء (حسب التفسير المادى للتاريخ) وأنه من ثم لا يصلح للتطبيق فى العصر الصناعى المتطور، الذى تغيرت

فيه كل القيم، وتحررت المرأة اقتصاديا فلم يعد يجور عليها ما كان يجوز من قبل فى البيئة البدوية المتأخرة، من اهتمام بقضية العفة، وصيانة من التبذل، وتفرغ للأسرة، واحتجاز عن الفاحشة، فتلك كلها من أخلاقيات المجتمع البدوى والمجتمع الزراعى. أما المجتمع الصناعى فله أخلاقياته الخاصة الناجمة أساسا من تحرر المرأة (!) وتفكك الأسرة (!) وانفلات كل فرد على هواه (!) وأنه إذا استمر الإسلام فى التطبيق، أو السيطرة على المجتمع، فمعنى ذلك تجميد المجتمع على الصورة البدوية والزراعية، ومنعه من «التطور» إلى صورة المجتمع الصناعى المتقدم، فلا بد من تنحيته عن السيطرة على المجتمع، وجعله على الأكثر – إذا لزم الأمر (!) – وجدانا دينيا يحكم عالم الوجدان ولا يتدخل فى واقع الحياة ! (أى فى الصورة الأوربية الكنسية التى آل إليها فى الغرب: علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة، والتى تسمى باسم آخر لطيف جذاب: الصورة العلمانية!!) .

وتلك الأضلولة المركبة من أخطر وأخبث ما لعب به المستشرقون فى حياة المسلمين.

إنها تشمل أطرافا عدة مربوطة فى عقدة واحدة. قضية «المرأة» بصفة خاصة، وقضية «الأخلاق» وقضية «الحضارة والتقدم» وقبل ذلك قضية «هذا الدين».

فأما قضية «هذا الدين» فإن الإلحاح المستمر مدى قرنين من الزمان فى آذان المسلمين وأذهانهم – على يد المنصرين ثم المستشرقين – بأن دينهم لا يصلح للحياة فى الوقت الحاضر، لأنه مفصل على البيئة البدوية الرعوية (أو لأى سبب آخر، كقولهم إنه دين يدعو إلى التواكل والكسل والإحجام، ويصد الناس عن المغامرة والاقتحام!) فإنه ينتهى فى نفس المسلم المستضعف المهزوم إلى إحدى نتيجتين: إما الاعتقاد بأن «الدين» كله عنصر تخلف في حياة البشرية، فينبذ دينه (وإن احتفظ به وجدانا فى الضمير) وإما الشك فى أن «هذا الدين» من عند الله حقا (وتلك غاية الهزيمة الروحية) فينبذ الدين من حياته جميعا، بما فى ذلك الوجدان المستكن فى الضمير.

وأما قضية « الحضارة »، فإن الإلحاح المستمر مدى قرنين من الزمان بأن الدين عقبة فى سبيل التقدم والرقى، بينما إغراء الحضارة الحديثة (سواء بمنجزاتها العلمية، وتيسيراتها المادية، أو بمفاتنها الانحلالية) إغراء أقوى من أن يقاوم، وخاصة فى نفوس المستضعفين المنهزمين، هذا الإلحاح ليست له نتيجة – كما قلنا آنفا – إلا نبذ الدين من الحياة الواقعة (سعيا وراء التحضر والتقدم) مع إبقاء الدين وجدانا فى الضمير (بحكم العادة أو من أجل الآخرة – لمن بقى يذكرها! – أو بحكم الفطرة التى تبحث من تلقاء ذاتها عن إلهها وعقيدتها) أو نبذ الدين كلية من الواقع ومن الضمير، وتلك نهاية المطاف !

وهذا وذاك هما الهدف الذى تسعى إليه الصليبية الصهيونية بكل ما وسعها من جهد . . منذ قرون!

وأما قضية « الأخلاق »، فقد كان من أهم ما تسعى إليه الصليبية الصهيونية إفساد أخلاق المسلمين ليضعفوا وتنكسر شوكتهم، ولا يعودوا يقفون صامدين فى وجه الاستعمار الصليبى الصهيونى.

وكان الاستنكار الذى تواجه به الأمة الفاحشة الخلقية من أكبر العقبات أمام المخطط الصليبى الصهيونى الذى يهدف إلى حل أخلاق الأمة ليسهل استعبادها وقيادها من خطام الشهوات.

وصحيح أن الأمة لم تكن كلها من الأتقياء المتطهرين، وكان فيها من يمارس الفاحشة بصورة أو بأخرى على الرغم من تحريم الإسلام لها، وعلمهم بهذا التحريم. ولكن كانت هناك حقيقتان فى هذا الشأن. أولاهما أن نسبة من يقعون فيها ليست هى النسبة الغالبة من الأمة، إذا جعلنا فى حسابنا أن الإسلام يدعو إلى الزواج المبكر ويحث عليه، فتنتفى الحاجة إلى ممارسة الرذيلة مادام الطريق السوى النظيف فى حيز الإمكان، وإذا جعلنا فى حسابنا كذلك أن المرأة – لأى سبب من الأسباب – لم يكن من السهل عليها أن تنحدر إلى حمأة الرذيلة – حتى لو شاءت! – ومن ثم ينحصر الفساد فى بضع نساء فى المدينة ساقطات. والحقيقة الثانية أن سلطان الدين القائم فى النفوس كان يحد من

الانغماس فى الرذيلة حتى عند من يزاولها فعلا، فلا يتمادى فيها بل يتوب عنها عند أول فرصة تسنح له للسير فى الطريق المستقيم.

وبهذا وذاك كان الاستعمار الصليبى الصهيونى محصورا مقيد النشاط !

وكان لابد من تحطيم الدين ليسهل حل الأخلاق.

ومن هنا ألح المستشرقون الذين يتكلمون بروح «علمية»! على أن هذه الأخلاق كانت جائزة وطبيعية ومنطقية فى البيئة البدوية الرعوية التى نزل فيها الإسلام (كأنما كانت موجودة فى تلك البيئة من قبل، ولم يكن الإسلام هو الذى أنشأها على مقاومة من تلك البيئة!!) وأن «التطور» الحتمى قد نقل المجتمع البشرى من الحالة الرعوية – والزراعية – إلى الطور الصناعى الذى لا تصلح فيه تلك الأخلاق، لأنها كانت قائمة على سيطرة الرجل وأنانيته وإذلاله للمرأة (إذلالها بالنظافة الخلقية!!) لأنها تعتمد عليه اقتصاديا فيتحكم فيها. أما فى العصر الصناعى – المتطور – فقد استقلت المرأة اقتصاديا ولم تعد تخضع لسلطان الرجل المتجبر فأصبحت حرة تفعل بنفسها ما تشاء! وعلى ذلك يكون التحلل الخلقى تقدما وتطورا، ويكون الدين الذى يحول دونه هو الرجعية والتأخر!

وللحق نقول إن أوربا ذاتها كانت «مصابة» بهذا اللون من التفكير حتى تجاه دينها هى، وأن اليهود هم الذين بثوا فيها هذه الأفكار ليفسدوها ويسيطروا عليها، وقام علماؤهم من أمثال ماركس وفرويد ودركايم بجهد «علمى!» واضح فى ترسيخ هذه الأفكار المفسدة فى نفوس الأوربيين تحقيقا لهدف معين – يصرح به التلمود – هو استخدام الأمميين لحساب اليهود [1].

ولكن الصليبية التى تدفعها الصهيونية ليتعاونا معاً على تحطيم الإسلام كانت تعلم جيداً أن التماسك الخلقى عقبة فى سبيل السيطرة الصليبية الصهيونية، وأنه لابد من تحطيم تلك العقبة لتتم السيطرة على العالم الإسلامى. فلم يكن تقديم الفساد الخلقى للمسلمين يهدف إلى تحضيرهم وترقيتهم! إنما كان يهدف – بعلم وبنية مسبقة – إلى تحطيم هذه الأمة.

---

(١) «الأمميون» (الجوييم) لفظ يطلقه اليهود على كل الأمم من غير اليهود. ويقول التلمود لليهود: الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار !!

يقول المنصر الشهير «الأب زويمر» فى مؤتمر القدس الذى انعقد عام ١٩٣٥، مخاطبا زملاءه المنصرين:

«إنكم أعددتم نشئا (فى بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها. وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقا لما أراده الاستعمار المسيحى، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات. فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء.

«إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحية، ورضى عنكم الاستعمار. فاستمروا فى أداء رسالتكم، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب» [1].

أى رب هذا ياترى الذى يفرح بإفساد الناس.. إلا أن يكون هو الشيطان؟!

﴿.. قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

أما قضية «المرأة» بصفة خاصة، فلها قصة!

فمن قبل، فى أيام المنصرين، قبل المستشرقين، اهتمت مؤتمرات التنصير اهتماما بالغا بتعليم المرأة المسلمة! تلك المؤتمرات التى كانت تقول علانية إنها تسعى جاهدة لتدمير المسلمين!

جاء فى ص (٤٧) من كتاب (الغارة على العالم الإسلامى):

«ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين **وتحرير النساء**».

وفى صفحتى (٨٨ و ٨٩) وردت الفقرتان الآتيتان بشأن قرارات مؤتمر لكنو ومؤتمر القاهرة: «كل هذه الحوادث (أى بوادر قيام «نهضة» فى العالم الإسلامى

---

(١) عن كتاب: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، لمحمد محمود الصواف، طبع دار الاعتصام بالقاهرة، ط ٣ ص ٢١٨.

متأثرة بأوربا) تحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد، وتنظر فى أمر التبشير والمبشرين بكل عناية. وعلى ذلك فيشمل برنامج مؤتمر لكنو الأمور الآتية:

أولها: درس الحالة الحاضرة.

ثانيها: استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين، والتعليم النسائى.

ثالثها: إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها.

هذا ما نشرته مجلة الرئيس عن مواد تضمنها برنامج المؤتمر. أما البرنامج نفسه فقد عرض على المؤتمرين بعد قراءة الخطب الافتتاحية وانتخاب اللجنة وتلاوة تقارير لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة، وهذه مواده:

الأولى ...

....

السابعة: الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات.

الثامنة: الأعمال النسائية..

فما هذه العناية الشديدة من مؤتمرات التنصير «بتحرير» النساء المسلمات و«الارتقاء» الاجتماعى والنفسى بهن؟!

وما هذا الفرح التنصيرى بأن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى تحرير النساء؟ ذلك الفرح الذى يعوضهم عن ضعف نتائج التنصير فى صفوف المسلمين؟!

لابد أن تكون هناك أسباب!

والأسباب هى التى يكشف عنها المستشرق اليهودى «مرو برجر» فى كتابه «العالم العربى اليوم» الذى يقول فيه إن أكثر العناصر فاعلية فى عملية التغيير الاجتماعى فى العالم الإسلامى (أى التى تضعف أثر الدين وتمنع سيطرته على شئون المجتمع) هو المرأة المتعلمة العاملة فى خارج البيت [1] !!

ومن أجل ذلك كانت عناية المنصرين الخاصة «بتحرير» المرأة المسلمة !

لقد جربت الصليبية الصهيونية فى محاولتها تدمير الإسلام أن المرأة

---

(١) سنناقش الكتاب فى الفصل القادم إن شاء الله .

المسلمة – الجاهلة القابعة فى بيتها – تبث فى نفوس أبنائها – رغم جهلها – ما ورثته من تعاليم الدين التى تسرى فى دمائها، ومن ثم لا يكون من السهل على الصليبية الصهيونية إفساد هؤلاء الأبناء! وحتى إن فسدوا فى شبابهم فإنهم يعودون بعد حين إلى حظيرة الدين، فيذهب هباءً ما بذل من الجهد فى إفسادهم!

فلابد إذن من إفساد هذه المرأة ذاتها وهى فتاة لكيلا تلقن أباءها مبادئ الدين حين يكون لها أبناء. ولا يكون الإفساد إلا بتعليمها! وإلا بإخراجها من البيت! وإلا فكيف تتأثر بالتوجيهات المفسدة إذا لم تكن تقرأ ما يكتب [1] ؟ وكيف تمارس إفساد المجتمع وهى قابعة فى بيتها لا تخرج؟!

ولابد – لضمان نتيجة أكيدة المفعول – من إيغار صدرها ضد الدين، حتى لا تحن له أبدا، ولا تقع فى «حبائله!» أبدا.. وذلك بالإيحاء لها أن من حقها – بل من واجبها – أن تتحرر، وأن المانع الذى يمنع تحررها هو الدين!

* * *

من أجل هذه القضايا مجتمعة: قضية «الحضارة» وقضية «الأخلاق» وقضية «المرأة» عنى المستشرقون بأن يقولوا ويلحوا فى القول بأن الإسلام دين رجعى جامد متخلف لا يساير حركة البشرية وتطورها، مع وضع هذا «التطور» فى إطار من الإغراء الشديد الذى لا يقاوم، لتكون النتيجة هى تخلى المسلمين عن الإسلام، وهى النتيجة التى صرح المنصرون من قبل بأنها هدفهم وغايتهم من العمل فى بلاد المسلمين!

ولكن هذه القضايا كلها التى يثيرونها لتنفير المسلمين من الإسلام ليست قضايا «علمية» كما يزعمون، إنما هى قضايا سياسية، صليبية صهيونية، فإذا وضعناها على مائدة البحث العلمى فماذا يتحصل منها؟

فأما القول بأن الإسلام هو نتاج البيئة العربية البدوية فقد ناقشناه من قبل، ورأينا على ضوء الواقع التاريخى أنه لا البيئة البدوية العربية ولا أى بيئة فى

---

(١) لم تكن الإذاعة والتلفاز قد اخترعا فى ذلك الحين، ولكن لا غنى على أى حال عن تعليمها وإخراجها من البيت كما يقول مرو برجر!

الأرض كلها وقت ظهور الإسلام كانت تؤدى إلى عقيدةٍ تقوم على التنزيه المطلق لله، ونفى الألوهية والقداسة عن أى أحد إلا الله، وتقوم بتحرير «الإنسان» – نوع الإنسان – من كل عبودية زائفة لغير الله، ثم تعطى «الكرامة الإنسانية» للرجل والمرأة كليهما، وتحرر المرأة من الذل، والمحكومين من الطغيان، والرقيق من الرق (فيما عدا بقاياه التى تحدثنا عن ظروفها من قبل) وتحرم الربا وتحرم الخمر وتحرم الانحدار الحيوانى فى صورة فاحشة تلوث المجتمع البشرى..

وأما الحضارة فقد رسخ الإسلام أسسها ومبادئها على قواعد غير التى كانت قائمة فى الأرض كلها يومئذ، لأنها قواعد ربانية، أنزلها خالق الإنسان، الذى يعلم ما يصلحه وما يصلح له.

﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤].

فأما البيئة البدوية العربية فلم يزعم أحد أنه كان لديها فى ذلك الوقت ما تنشىء به من عند نفسها حضارة يعتد بها فى مجال الحضارات، بصرف النظر عن **استعداداتها**، التى علم الله منها أنها صالحة لحمل رسالة الإسلام، والارتفاع إلى مستوى حضارته، والتى قال الله عنها: ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بما تحمله الآية من معانٍ واضحة. وأما الحضارة الإغريقية فقد كانت تؤله العقل، وتجعله هو المحكّم فى جميع الأمور، سواء منها ما يمكن للعقل أن يستوعبه وما لا يمكن، وما يصلح أن يستفتى فيه وما لا يصلح! فخلطت بذلك أمورا مفيدة وأمور موبقة، كان من أبشعها الوثنية وتعدد الآلهة، وتصوير العلاقة بين الإنسان وبين الإله على أنها علاقة صراع وحقد متبادل؛ الإنسان يريد أن يثبت ذاته بتحدى الإله وعصيانه، والإله يريد أن يحطم الإنسان غيرة منه لأن الإنسان قد شاركه فى المعرفة (١) !! وأما الحضارة الرومانية فهى عبادة الحسد

---

(١) أوضح ما تكون هذه اللوثة فى أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة، التى يتحطم فيها حقد الإله على الإنسان لأنه تعلم، وشارك الإله فى «المعرفة»، بعد أن سرق له بروميثيوس النار المقدسة! فلا الإله كان قد أعطى الإنسان العلم، ولا هو رضى عنه بعد ما تعلم! وأما الانتقام الذى انتقم به منه فهو أنه أرسل إليه مخلوقة أنثى، فى الظاهر لتؤنسه فى وحشته، ولكنه أرسلها صندوقا هدية، فلما فتحه إذا هو مملوء بالشرور، فقفزت الشرور من الصندوق وملأت وجه الأرض!! راجع الحديث عن دلالات الأسطورة إن شئت فى كتاب «حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية».

ولذائذه، والرغبة في الاستغراق في المتاع الحسّي بكل ألوانه، فتزين الحياة الدنيا إلى حد الفتنة بزخارفها. وفي الوقت ذاته هي حضارة الغلبة وحيازة القوة لإذلال الآخرين واستعبادهم (١). وأما الحضارة الفارسية فهي حضارة الطقوس المقدسة والعنجهية المتألهة وعبادة النار !

وجاء الإسلام ليضع أسس الحضارة الحقيقية الجديدة «بالإنسان». الإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق: ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [الإسراء: ٧٠] الحضارة التي تأخذ «الإنسان» كله، بجميع جوانبه وجميع مجالاته: سواء الجانب الروحي، أو الجانب العقلي، أو الجانب الجسدي. وسواء مجاله السياسي، أو مجاله الاجتماعي، أو مجاله الاقتصادي، أو مجاله العلمي، أو مجاله الأخلاقي.. وتوجه ذلك كله لله: ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

فيعمل الإنسان لدنياه وآخرته في آن واحد: ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [القصص: ٧٧]. ويعمل بروحه وعقله وجسده في آن واحد، ويعمل بنشاطه كله لعمارة الأرض وقلبه متعلق بالسماء: ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ [الملك: ١٥]. وهي هي الحضارة التي عرفتها أوربا ذات يوم فتتلمذت عليها، واستمدت منها أسباب نهضتها. وإن كانت قد أساءت التتلمذ (بما ورثته من الحضارة الإغريقية الرومانية من انحرافات) وأساءت الأدب فردت الجميل بالعدوان!

أما كون المسلمين اليوم متأخرين حضاريا فهذه حقيقة، ولكنها حقيقة

---

(١) مما تفخر به أوربا أنها وريثة الحضارة الإغريقية الرومانية، وهي على حق فيما تقول. فقد ورثت عنها عبادة العقل، وعبادة الجسد، وحيازة القوة لإذلال الآخرين واستعبادهم! وبئس الإرث ما ورثت!

تتعلق بالمسلمين لا بالإسلام! فالمسلمون حين ينحرفون عن الإسلام يتأخرون، وهم اليوم منحرفون، ويبقى الإسلام كما نزل من عند الله، يفيء إليه البشر إذا أرادوا أن يكونوا متحضرين!

والإسلام كذلك هو الذى وضع الصورة المثلى للأخلاق التى تليق بالإنسان.. الإنسان فى عمومه، لا فى طور معين من أطوار حياته. وما يزعمه التفسير المادى للتاريخ من أن الوضع المادى والوضع الاقتصادى هو الذى ينشيء الأخلاق، فهو حقيقة بالنسبة للجاهلية. فما دام البشر – في الجاهلية – هم الذين يضعون المعايير – الفكرية والخلقية والسياسية والاقتصادية – فلابد أن تتغير أفكارهم وأخلاقهم ومعاييرهم كلما تغيرت أوضاعهم!

والتفسير المادى للتاريخ الذى يزعم أن الأصل هو المادة، وأن الوضع المادى هو الذى يسيطر على الناس بحتميات لا قبل لهم بها، ولا فرار لهم منها، يعود فيناقض نفسه فيقول إن «الطبقة» التى تملك هى التى تحكم، وهى تحكم دائما لصالح نفسها على حساب الطبقات الأخرى. أى أن البشر – الطبقة المالكة منهم – هم الذين يشرعون، وليست المادة، ولا الوضع المادى!

وما بنا هنا أن نناقش التفسير المادى للتاريخ مناقشة تفصيلية، فقد ناقشناه فى فصل طويل عن الشيوعية استغرق أكثر من مائتى صفحة من كتاب مذاهب فكرية معاصرة، لمن شاء أن يرجع إليها.

إنما نحن هنا نقرر هذه الحقيقة: إن ربط الأخلاق بالوضع المادى أو الوضع الاقتصادي، والزعم – من ثم – بأن هناك أخلاقيات رعوية وأخلاقيات زراعية وأخلاقيات صناعية، هو فى ذاته زعم جاهلى، ناشيء من اتخاذ التفسير المادى – الجاهلى – للتاريخ!

إن أوضاع الإنسان المادية والاقتصادية تتغير. نعم. وهى دائمة التغير، نتيجة التفاعل البشرى الدائم مع الكون المادى، الذى ينشيء كل حين أوضاعا لم تكن قائمة من قبل، ولكن «الإنسان» لا يتغير تغيرا جوهريا من داخله بتغير أوضاعه المادية والاقتصادية.. وإنما له حالتان اثنتان فى كل أوضاعه المادية

والاقتصادية، لا تتعلقان بالوضع المادى، ولا بأية حتميات زائفة، إنما تتعلقان بأمر جوهرى فى كيانه هو الإيمان أو الكفر:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

ومن ثم لا توجد لأخلاقياته إلا حالتان اثنتان، فهى إما أخلاق الإيمان وإما أخلاق الكفر (أو بعبارة أخرى أخلاق الإيمان أو أخلاق الجاهلية). فأما أخلاق الإيمان فهى لا تتغير، لأنها من تقرير الله سبحانه وتعالى، ووحيه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المتعلقة بالإنسان من حيث هو إنسان. وأما أخلاق الجاهلية فهى عرضة دائما لأن تتغير، كلما تغير طور من أطوار الإنسان، فتغيرت «الطبقة» التى تشرع للناس!

ومن ثم لا توجد في عرف الإسلام أخلاق رعوية وأخلاق زراعية وأخلاق صناعية، إنما توجد أخلاق إيمانية، يلتزم بها الإنسان المؤمن سواء كان فى البادية أو فى الريف، أو فى المدينة الصناعية المزدحمة بالسكان (على حد تعبير مرو برجر)؛ أما طرق المعيشة أو بالأحرى صورتها فتتغير، فيسكن الإنسان فى كوخ أو فى خيمة أو فى بيت خشبى أو فى بيت حجرى أو فى قصر مشيد.. فيعبد ربه فى جميع حالاته ويلتزم بأوامره لأن علاقته بربه لا تتغير: هو المخلوق والله هو الخالق، وللخالق على المخلوق حق عبادته. ويسير على قدميه أو يركب دابة، أو يركب عربة تجرها دابة، أو يركب سيارة أو يركب طائرة.. فيعبد ربه فى جميع حالاته، ويلتزم بأوامره، لأن علاقته بربه لا تتغير: هو المخلوق والله هو الخالق، وللخالق على المخلوق حق عبادته..

وهكذا فى جميع أحواله..

ومن ثم يصف القرآن الأخلاق على أنها ميثاق بين الإنسان وبين الله، تندرج تحته كل علاقات الإنسان: علاقته بربه، وعلاقته بأبويه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بالناس كافة، على تفصيل يناسب كل علاقة من هذه العلاقات ويبين حدودها.

﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار .. ﴾ [الرعد : ١٩ – ٢٢].

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا .. ﴾ [المائدة : ٧].

وتشمل هذه الأخلاق كل معاملات الإنسان، وكل مجالات حياته، لا شيء منها يكون خارج دائرة الأخلاق كما تفعل الجاهلية المعاصرة فى السياسة، وفى الاقتصاد، وفى العلاقات الاجتماعية، وفى علاقات الجنسين، وفى كل شأن من شئون الحياة .. وتقدم للعالم « حضارة » بلا أخلاق ! وتقدم معها معدلات دائمة الارتفاع فى الأمراض النفسية والعصبية، والقلق والجنون والانتحار، والخمر والمخدرات والجريمة، ثم تفرضها – باسم العولمة أو باسم النظام العالمى الجديد – على من يريد ومن لا يريد !!

أما قضية المرأة – أكبر قضايا الجاهلية المعاصرة وأكبر مفاسدها – فالله قد أنزل فيها حكمه فى كتابه المنزل وفى سنة رسوله ﷺ، والمؤمنون ملتزمون بما أنزل الله إليهم لأن الله قال لهم : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . أما غير المؤمنين فلينظروا إلى الواقع المشهود فى الغرب، حين خالفت الجاهلية المعاصرة حكم الله . فلينظروا إلى الأمراض النفسية والعصبية ونسب الطلاق المتزايدة، ولينظروا بصفة خاصة إلى مصائب الشذوذ، وهو من « الآثار الجانبية » التى نشأت من « تحرير » المرأة على النحو الذى تحررت به، وأدى – من بين ما أدى – إلى ترجيل المرأة وتأنيث الرجل، وغياب قوامة الرجل على الأسرة .. وهذا ليس كلامنا نحن، إنما كلام عقلائهم أنفسهم .

وأما كون المرأة الأوربية كانت مظلومة مهضومة الحقوق، فنعم. وأما كون المجتمع الإسلامى فى عصوره المتأخرة قد انحرف إلى ألوان من الجاهلية فى معاملة المرأة، فنعم، ولكن هذا لا يبرر للمرأة الأوربية «تحررها» على النحو الذى تحررت به، وجلب من ألوان الخلل فى المجتمع الأوربى ما جلب. ولا يبرر للمرأة المسلمة أن تتخذها قدوة، وقضيتها غير قضيتها، ومنهجها غير منهجها، وقيمها ومبادئها غير قيمها ومبادئها (١) ..

وأما القول بأن الإسلام - كما أنزله الله، ومن يوم أن أنزله الله - قد ظلم المرأة وكبّلها، فقول لا يصدر عن مسلم يؤمن بالله ورسوله: ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف: ٥].

وإذا كانت الجاهلية المعاصرة قد أخرجت المرأة من بيتها، ومن وظيفتها الفطرية لتشارك فى الإنتاج المادى - على حساب عملها الرئيسى فى رعاية الإنتاج البشرى - فتلك حماقة لا يقدم عليها عاقل. والإسلام على أى حال لن يدور مع أهواء الجاهلية حيث دارت، وهو الذى نزل ليعالج انحرافات الجاهلية، وليقوم الناس بالقسط:

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١].

* * *

وأما القضية العكسية التى ظهرت فى كتابات المستشرقين المحدثين (من مدرسة المستشرق الانجليزى جب) فهى أخبث وأخطر من دعوى الرجعية فى هذا الدين!

إنها إغراء بتدمير كل مفاهيم الدين باسم الدين، وتحت ستار الدين! وذلك

(١) شرحنا هذه القضية بشىء من التفصيل فى كتاب «واقعنا المعاصر».

obeikandl.com

بإدخال كل ما يراد إدخاله من «التطور» فى ظل دعوى تقول إن الإسلام دين مرن منفتح على الحضارة، قابل دائما للتفاعل مع ما يجدّ فى حياة الناس.

وهى كلمة حق يراد بها باطل!

فالإسلام دين مرن، نعم، منفتح على الحضارة، نعم، ولكن فى حدود الثوابت التى ثبتها الله. وشرط الاجتهاد المعروف لدى الفقهاء هو ألا يحل حراما ولا يحرم حلالا ولا يصادم مقاصد الشريعة. أما أن يفتح الباب على مصراعيه لإضفاء الشرعية على كل بدعة تبتدعها الجاهلية ولو صادمت نصا أو أصلا من أصول هذا الدين، فهذا تبديل صريح لدين الله، ولو تمسح بهذا الدين!

ولقد حكى الله عن جاهليات سابقة أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها [1] !! أما اليوم فإنهم لا يقولون وجدنا عليها آباءنا! بل يقولون وجدنا العالم كله يقوم بها، وقد أصبح العالم اليوم كالقرية الواحدة، فلا نستطيع أن نشذ وحدنا عن بقية العالم! وأما الدين فإنه يتسع!

ويجىء الاستشراق بخبائثه فيسوغ للمنهزمين انهزامهم، وللمنحرفين انحرافهم، ويمد المترددين بالحجة!

إن مصادر التشريع فى الإسلام هى القرآن والسنة والإجماع والقياس. فإذا أجمعت الأمة اليوم على شىء، فإنه تكون له الشرعية، ولو خالف كل ما جرى عليه العمل فى ظل الإسلام خلال القرون! ولو خالف النص الصريح!

أما قول الفقهاء لا اجتهاد مع النص، فهو حجر على العقل البشرى أن يفكر! وأول ما يجب على «الاجتهاد» الجديد أن يلغى هذه القاعدة الأصولية، لينطلق الاجتهاد بلا حدود!

هكذا يقول المستشرقون [2]، وهكذا يتلقف سمومهم المتلقفون، من

---

(١) قال تعالى: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾ [الأعراف: ٢٨].

(٢) سنعرض نماذج من أقوالهم فى هذا الباب فى الفصل القادم.

الذين يريدون تغيير كل شيء فى الدين، وهم يلبسون مسوح الدين، ويزعمون «الدفاع» عنه إزاء الجامدين المنغلقين!

* * *

ويتصل هذا الكيد بالعمل الدائب الذى تقوم به الصليبية الصهيونية لتمييع مفاهيم الإسلام عند المسلمين. إنه جهد ضخم تقوم به كل الأجهزة الصليبية الصهيونية، السياسية وغير السياسية على السواء، ويعمل له المستشرقون بوصفهم جهازا من تلك الأجهزة المدربة لهدم الإسلام.

يقولون:

إن الإسلام ليس نصا جامدا. إنه روح!

وروح الإسلام هى الشيء المهم.. وليست النصوص!

والنصوص قابلة «للتطوير»! إما تطوير المفهوم مع بقاء النص.. وإما تطوير النص ذاته إذا لزم الأمر!

وما دامت روح الدين باقية، فلا خشية ولا جزع من تطوير المفاهيم أو تطوير النصوص.. فأنتم – والله! – مسلمون مهما طورتم وبدلتم واستحدثتم من بدع فى هذا الدين!

بل أنتم مسلمون ولو عطلتم كل التشريع الإسلامى، وأخذتم بدلا منه «التجارب البشرية» الناضجة، التى جربتها البشرية فثبتت فائدتها، فهى ولا شك متفقة مع «روح الدين»، مادام فيها «مصلحة» للمسلمين!

هل تحسبون – أيها المسلمون – أن حكاية «الحكم بما أنزل الله» هذه ضرورية لحياتكم حتى تكونوا مسلمين؟!

لا تأخذوا الأمور بهذه الحرفية! لا تكونوا ضيقى الأفق.. لا تكونوا متعصبين!.. هل تريدون أن يقول عنكم العالم المتمدن إنكم رجعيون متخلفون؟!

حقا لقد جاء فى كتاب الله: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ**

الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بما أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بما أنزل اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، وكان هذا مفهوم المسلمين خلال القرون الماضية.. ولكن..!

جدت بعد ذلك أمور!

وتطورت الدنيا!

وجربت البشرية تجارب ناجحة فلماذا لا نستفيد بها؟!

و«الحضارة الغربية» هى خلاصة هذه التجارب الناجحة.. فهلموا إليها!

بالله أيها المسلمون! لا تترددوا فى أخذ الحضارة الغربية.. واطمئنوا على إسلامكم، فأنتم بخير.. مادمتم لا تخالفون روح الدين!

ألستم تصلون وتصومون وتحجون؟

إذن فأنتم مسلمون!

بل أنتم مسلمون ولو لم تصلوا وتصوموا وتحجوا..

هل أنتم فى ريب مما نقول؟!

إنكم تستطيعون أن تستحدثوا مفهوما جديدا للإسلام ليست فيه صلاة ولا صيام ولا حج، ثم يكون هذا «مفهوما إسلاميا» مادمتم استحدثتموه وأنتم مسلمون!!

إلى هذا المدى من المغالطة المستهترة وصل المستشرق الكندى المعاصر ولفرد كانتول سميث» فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث»، حيث قال فى فصل «تركيا» (ص١٦١، ص١٧٥، ص١٧٧، ص١٨٣) إن الأتراك لم يتركوا الإسلام أبدا حين قاموا بحركتهم المعروفة، إنما هم استحدثوا مفهوما جديدا للإسلام ليس فيه صلاة ولا شعائر تعبدية.. ولكنهم مازالوا مسلمين (١)!

وتشترك تلك العصابة الحديثة من المستشرقين كلها فى تمييع الإسلام بهذه

(١) سنناقش الكتاب فى الفصل القادم.

الصورة التى لا تبقى فيه شيئا من الإسلام، وإن اختلفت بينهم الوسائل والعبارات.. ولكنها تلتقى جميعا فى هذا التمييع المقصود.

وإنها لفتنة!

فيبدو أن تهمة الرجعية لم تكف لإقامة سد أمام حركات البعث الإسلامى، ويبدو أن قوما من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها قالوا: لنكن رجعيين! فلن نتخلى عن هذا الدين، وليقولوا فى شأنه وشأننا ما يقولون!

وعندئذ أحس «أصحاب الشأن» من الصليبيين والصهيونيين أن شيئا ما يوشك أن يفلت من بين أيديهم، وأن جهد قرنين كاملين فى تشويه العقيدة، وتشويه صورة الرسول ﷺ، وصورة رجالات الإسلام، وصورة التاريخ الإسلامى، ووسم هذا الدين بالرجعية والجمود والتخلف، وتنفير الناس منه بكل وسيلة.. كل هذا لم يحل دون قيام حركات إسلامية فى العالم الإسلامى عمى اتساعه تدعو الناس حتى أولئك «المثقفين» أنفسهم إلى الدين الحق فيستجيبون، وتنزاح الغشاوة عن أعينهم فيبصرون، ويتحمسون لهذا الدين - على وعى وتمكن - ولا يبالون أن يقال عنهم إنهم رجعيون أو ما شابه ذلك من الأقاويل.

إذن لابد من تغيير الخطة!

كفوا أيها المستشرقون عن وسم هذا الدين بالرجعية.. فلم يعد ذلك السلاح يفيد.

خذوا هذا السلاح الجديد.. إنه ذو مفعول أكيد!

بثوا فى نفوس المسلمين ما تشاءون من أفكار ومفاهيم تدمر حقيقة الإسلام، وقولوا إنها من الإسلام، بل قولوا إنها هى هى حقيقة الإسلام!

وأسقطوا بصفة خاصة حكاية «الحكم بما أنزل الله» من الحساب.

إن جماعات من المسلمين - بعد كل الجهد الذى بذلناه، نحن الصليبيين الصهيونيين فى تشويه صورة الحكم الإسلامى - لتقوم بين الحين والحين تطالب بالعودة إلى الدين، والحكم بما أنزل الله.

وأى شيء أخطر علينا وأشد إزعاجا لخواطرنا من هذه الجماعات التى تريد العودة للإسلام وحكم القرآن ؟!

كلا ! كلا ! لا ينبغى إتاحة الفرصة لأحد أن يقول بالعودة إلى الحكم بما أنزل الله .

قولوا للمسلمين – أيها المستشرقون – إن الحكم بما أنزل الله ليس شرطا للحياة الإسلامية على الإطلاق ! وإن إسلامهم لن تخدش منه شعرة واحدة وهم لا يحكمون « بنصوص » ما أنزل الله، ماداموا يحكمون « بروح الإسلام » ! ثم أدخلوا فى « روح الإسلام »، كل ما يعن لكم مما يصادم الإسلام ويقوّض أركانه، ولتوجهوا عنايتكم بصفة خاصة أن تدخلوا فى « روح الإسلام » أمرين أساسيين : الحكم بغير ما أنزل الله، « وتحرير » المرأة ! فإن المرأة المتعلمة على طريقتنا هى أكبر أعواننا على هدم الإسلام . . المرأة التى علمناها على المناهج التى وضعها وَلَدُنا دنلوب، وسرت فى العالم الإسلامى كله تؤتى أكلها كل حين بتوجيه الشيطان !

تلك هى الفتنة التى تدير رحاها الصليبية الصهيونية – وأجهزتها « الثقافية » – لهذا الجيل من المسلمين .

وهى ليست قضايا « علمية » . . إنها فتنة . . فتنة مكشوفة مهما لبست ثياب « العلم » .

فالإسلام منهج واضح محدد لا يختلط بغيره من مناهج الأرض، ولا يقبل التمييع .

وفوق أنه أعلى من كل مناهج الأرض، فهو مخالف لكل مناهج الأرض .

إنه يخالفها ابتداء فى كون الحاكمية فيه لله لا لأحد من البشر، بمعنى أن شريعة الله هى التى تحكم، وأن البشر فى ظله لا يشرعون لأنفسهم، وإنما يحكمون بشريعة الله، فيحتكمون إلى نصوصها، ويجتهدون فيما لا نص فيه، فى داخل الإطار المحكم لشريعة الله، بحيث لا يحلون حراما ولا يحرمون حلالا ولا يخالفون مقاصد الشريعة .

وليست هذه قضية عارضة فيه كما يحاول أن يصورها المستشرقون، ولا هى قطعة منه قابلة « للاستبدال » !

إنها صميم الإسلام . . إنها نابعة ابتداء من الشهادة بأنه لا إله إلا الله . .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وليس الحكم بما أنزل الله قضية روح عامة كما يحاول أن يصورها أولئك المستشرقون. إنما هى نص وروح فى ذات الوقت بغير افتراق بين هذا وذاك..

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ.. ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

والإسلام يقوم ابتداء على أساس العبودية الخالصة لله، وإفراد الله بالألوهية والربوبية، ونفيهما عن كل أحد سواه. والحكم بنصوص الشرع، والالتزام بها، ليس إلا وجها من أوجه إفراد الله بالعبادة، ومن ثم فهو ركن أصيل فى الإسلام لا يستبدل، لأنه حين يستبدل لا يذهب فقط بالنصوص. إنما يذهب كذلك بروح الإسلام.

والحضارة الغربية التى يريد المستشرقون إدخالها فى حياة المسلمين بعد إلباسها زى الإسلام، تقوم ابتداء على أساس مخالف للإسلام، وهو حاكمية البشر بدلا من حاكمية الله.. ومن ثم فكل محاولة لإلباسها زى الإسلام هى محاولة باطلة من أساسها، وإن كان هذا لا يمنع من أخذ «التنظيمات» النافعة فى هذه الحضارة، ولكن دون أخذ «النظم» – أى الأسس والمبادئ – التى تقوم عليها الحضارة الغربية، القائمة على حاكمية البشر بدلا من حاكمية الله، والتى تبيح الربا، وتبيح الخمر، وتبيح «العلاقات الحرة!» بين الجنسين، وتبيح العرى، وتبيح الشذوذ، وتبيح سرقة أقوات الشعوب، وتبيح للقوى أن يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

* * *

ويتصل بعملية التمييع هذه، الخلط المتعمد بين «الإسلام» و «المسلمين».

يقول ولفرد كانتول سميث فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث» إن المسلمين يغضبون منا - نحن المستشرقين - من استخدام كلمة «الإسلام» بمعنى «المسلمين» لأننا نصف الإسلام فى هذه الحالة بصفات يريدون هم أن ينزهوه عنها.. ولكن هذا من طبيعة اللغة! (أى اللغات الأوربية التى يكتب بها المستشرقون).

وليس هذا الذى يقوله ولفرد كانتول سميث حقيقة! فاللغة - أى لغة فى الدنيا - لن تجبر المتحدث بها على هذا اللبس، مادام هناك لفظة خاصة بالإسلام ولفظة خاصة بالمسلمين! ومادام السيد المستشرق يعلم أن هذا مما يتأذى منه المسلمون فلماذا يصر عليه هو وزملاؤه؟ فلو لم يكن هو وزملاؤه يقصدون هذا قصدا ما فعلوه، ولن تجبرهم طبيعة اللغة - أى لغة - أن يلبسوا هذا اللبس.

إنما المقصود تمييع صورة الإسلام، حتى يصير هو واقع المسلمين، ومن ثم يصبح شيئا متغيرا على الدوام، لا ضابط له ولا مرجع يرجع إليه في الحكم على ما هو من الإسلام وما ليس من الإسلام!

وهذا يخالف نصوص الإسلام وروحه على السواء.

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].

ومن ثم فهناك مرجع محدد يُرجَع إليه فى حالة التنازع. مرجع ثابت لا يتغير. وهناك إذن أصل ثابت للإسلام يحكم به على تصرفات الناس، إن كانت منطبقة على الإسلام أو منحرفة عنه. ومن ثم كذلك يفترق الإسلام عن واقع المسلمين حين ينحرفون عن الإسلام، فيصبح المسلمون منحرفين عن الإسلام، ويظل الإسلام هو هو كما نزل من عند الله.

أما اختلاف الفقهاء فيما بينهم فى الفرعيات فلا يلغى هذه الحقيقة، فإنهم لا يختلفون فى الأصول، ولا يملكون أن يضفوا الشرعية على ما لا شرعية له فى دين الله.

ولا يغيب ذلك عن المستشرقين بطبيعة الحال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

يقول «جب» فى كتاب «الاتجاهات الحديثة فى الإسلام Modern Trends In Islam»:

«إن نوع المجتمع الذى تبنيه جماعة لنفسها يتوقف أساسا على معتقداتها حول كنه هذا الكون وغايته؛ وحول مكان النفس الإنسانية فيه. وهذه نظرية مألوفة إلى حد كبير، ولا تفتأ الكنيسة ترددها أسبوعا بعد أسبوع. وربما كان الإسلام هو الدين الوحيد الذى قصد فى ثبات وإلحاح إلى بناء مجتمع وفق هذا المبدأ، وقد كانت أداته الرئيسية لتحقيق هذا الغرض هى الشريعة».

ويقول جرونيباوم فى كتابه «الإسلام Islam»:

«إن الأمر الذى اقتضى عشرات السنين من المسيحيين الأوائل لكى يدركوه قد أدركه محمد (ﷺ) بعد سنوات قليلة، وهو أنه مادامت إرادة الله قد اقتضت أن تمتد الحياة الدنيا فترة من الوقت طالت أو قصرت فإن الجماعة الإسلامية ينبغى أن تستقر فيها على التقاء كامل مع تعاليم الوحى المنزل..».

ويقول سميث فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History»:

«وإذا كانت عقيدة ما أو نظام ثيولوجى يمكن أن يكون تعبيرا عن الصورة العقلية للاعتقاد الشخصى – كما هو الشأن فى كثير من الحالات، وفى المسيحية بصفة خاصة – فإن النظام الاجتماعى بما يحويه من ألوان النشاط المختلفة هو التعبير – فى صورة عملية – عن الاعتقاد الشخصى للمسلم».

ويقول كذلك فى نفس الكتاب:

«يرى المسلم، مثل الماركسى، وعلى غير ما يرى الهندوكى، أن ما يحدث هنا فى هذه الأرض ذو دلالة باقية ولا مفر منها. إن بناء حياة الجماعة فى الأرض

على أسس سليمة هو الواجب الأسمى. ولا شك أن المحاولة الإسلامية – بالنسبة لكل المحاولات التى بذلت لنشر العدالة بين الناس – كانت وما تزال إلى هذه اللحظة أشدها جدية وأكثرها جهدا. وإلى ما قبل قيام الماركسية كانت كذلك أعظمها وأشدها طموحا. ومع ذلك فهى تفترق عن الماركسية فى أن الإسلام يرى أن كل حدث دنيوى له مرجعان، وينظر إليه فى ضوءين معا. فكل حركة يتحركها الإنسان ذات صلة بعالم الخلد والعالم الأرضى فى وقت واحد... أى أن كل عمل له نتائج من نوع معين في الحياة الدنيا، ونتائج من نوع آخر فى الحياة الآخرة. وبمعنى آخر فإن كل عمل يجب أن يقوّم فى ذاته، ويقوم فى نفس الوقت بالنسبة لصلته بحركة التاريخ».

فهناك إذن صورة واضحة المعالم للمجتمع المسلم، صورة يحكم بها على أى مجتمع هل هو مسلم أم غير مسلم. وانحرافات المسلمين عن هذه الصورة خلال التاريخ ليست لها حجية.. **إنها انحرافات**. ولا تؤخذ قط على أنها صورة من «الإسلام». إنما هى صورة من حياة «المسلمين»، يقتربون فيها من الإسلام أو يبتعدون عنه بحسب أنماط سلوكهم، ويبقى الإسلام – دائما – هو الإسلام كما أنزله الله، وكما هو محفوظ فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومع وضوح هذه الحقيقة فى كتابات المستشرقين أنفسهم – كما مر بنا فى المقتطفات السابقة – فإنهم يخلطون خلطا متعمدا بين «الإسلام» و «المسلمين» لعدة غايات.

ففضلا عن الغرض الخبيث الذى تسعى إليه الصليبية الصهيونية من إزالة القداسة عن هذا الدين فى نفوس المسلمين، باستخدام أوصاف مؤذية وتوجيهها إلى «الإسلام» (والمقصود بها – لو صحت، وليست دائما صحيحة – المسلمون لا الإسلام) وتكرار هذه الأوصاف حتى تذهب بوقار الإسلام واحترامه فى النفوس..

فضلا عن هذا الغرض الخبيث فهناك الإيحاء المقصود بثه فى نفوس المسلمين من أن الإسلام أمر بشرى فى النهاية – ولو كان منزلا من عند الله! –

فما دامت أعمال البشر تتخذ حكما على الإسلام المنزل من عند الله، فإن الصورة الربانية المنزلة تظل تتراجع فى النفس وتتضاءل وتخبو، وتبرز بدلا منها الصورة البشرية المعروضة، وتختلط الأمور فى النهاية، ويتميع مفهوم الإسلام !

إنك حين تقرأ – على الدوام – مثل هذه العبارات فى كتب المستشرقين:

إن الإسلام استمد من الفرس والبيزنطيين أنظمة الحكم..

إن الإسلام استوعب الهيلينية **وتأثر بها** فى صياغة أفكاره..

إن الإسلام أخذ التصوف من الهنود والفرس..

إن الإسلام تحول من موقف كذا إلى موقف كذا..

يقر فى خلدك – دون وعى منك – أن الإسلام ليس شيئا ثابتا محدد المعالم، وإنما هو صور مختلفة متعددة، فلا يكون منه فى نفسك ذلك الأثر الراسخ الفعال، الذى يشعه فى نفسك « الإسلام » المنزل من عند الله.

ومن جانب آخر فإنك حين تقرأ مثل هذه التعبيرات:

إن الإسلام فى القرن الثالث الهجرى اتجه إلى أخذ الثقافة الهيلينية (مثلا).

إن الإسلام المعاصر يبحث عن شخصية محددة المعالم يواجه بها العالم الحديث..

إن الإسلام فى محاولته الرد على تحدى الغرب قد لجأ إلى كذا وكذا..

فقد يقر فى خلدك – دون وعى منك – أن هذه المواقف المذكورة، والمحاولات المشار إليها هى مواقف ومحاولات إسلامية، أو أن الإسلام يرضى عنها، بينما هى قد تكون منحرفة عن الإسلام، كمحاولة المسلمين المنهزمين اليوم – مثلا – أخذ الحضارة الغربية بحلوها ومرها، وما يحمد منها وما يعاب (كما قال الدكتور طه حسين فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر ») أو « تحرير » المرأة على الطريقة الغربية التى يحاولها « التقدميون » و « التقدميات » فى العالم الإسلامى!

وبهذا وذاك تتميع صورة الإسلام فى نفوس المسلمين، ولا يعود له ذلك

الوضوح المؤثر الفعال الذى يكون له حين يعرض فى صورته الحقيقية الرائعة الصافية الأصيلة.

وهو أمر مقصود..

فالصورة الحقيقية الرائعة الصافية الأصيلة خطرة شديدة الخطر على مخططات الصليبية الصهيونية، لأنها ذات مفعول **لا يقاوم** ! إنها تملأ نفس صاحبها فينفعل بها فيسعى إلى تحقيقها فى عالم الواقع. وهذا - بالذات - هو الأمر المرهوب الذى تفزع منه الصليبية الصهيونية، وتعمل بكل السبل على منع وقوعه. أما الصورة المهزوزة المتأرجحة المتحولة التى يحرص المستشرقون على بثها فى نفوس المسلمين باستخدام كلمة «الإسلام» بدلا من «المسلمين» فهى صورة لا «تبعث» فى نفس أحد، ولا يحدث منها خطر على الإطلاق !

والأمر فى ذلك ليس متروكا لتصور المسلمين ولا تصور المستشرقين، يتصوره كل منهم على هواه:

إن «الإسلام» من عند الله..

و «التطبيق» من عند البشر..

ومن ثم يظل «الإسلام» حقيقة قائمة بذاتها واضحة المعالم، غير مختلطة بغيرها من الصور. ويظل «التطبيق» هو محاولة البشر الدائمة للوصول إلى الإسلام الصحيح. وقد تنجح المحاولة كما نجحت فى الصدر الأول من الإسلام، فيصبح إسلام الناس صحيحاً ومكتملاً، وقد تفشل المحاولة درجات مختلفة من الفشل كما حدث خلال الفترات التالية لصدر الإسلام، فيصبح إسلام الناس متحققا بالقدر الذى استطاعوا فيه بالفعل أن يطبقوا حقيقة الإسلام، ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا**﴾ [الأنعام: ١٣٢]. ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [فاطر: ٣٢]. فأما من خرج فى التطبيق جملة عن حقائق الإسلام، أو جحد أحد أركانه، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، فقد خرج من دائرة الإسلام، وإن حمل اسما مسلما وزعم أنه مسلم: ﴿**وَيَقُولُونَ**

آمنّا بالله وبالرّسـول وأطعنا ثمّ يتـولّى فـريقٌ مّنهم مّن بعْـد ذلك ومـا أُولَئك بالمُؤمنين﴿ وإذا دُعُوا إلَى الله ورَسُوله ليحْكُمَ بينهم إذَا فَريقٌ مّنهُم مُّعْرِضُونَ﴾

[النور ٤٧ – ٤٨].

وليس هذا – كما يزعم المستشرقون – «تجريدا» لنظرية. أو صورة مثالية اسمها «الإسلام».

فما دام هذا الإسلام قد طبق بالفعل فى واقع الأرض، لا سنة ولا سنتين، ولكن قرونا متصلة فهو ليس «نظرية» مجردة، إنما هو «واقع»، وليس صورة مثالية، إنما هو تطبيق واقعى.

ولا ينفى هذا بطبيعة الحال أنه تحدث تغيرات فى التفاصيل العملية لهذا الواقع، كلما جدت فى حياة الناس أمور جديدة، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها، ومزية الإسلام فى ذلك أنه يتسع لكل نمو سوى فى حياة البشر، ولكن هذا النمو ليس له أن ينحرف بالناس عن الأصول العامة لهذا الدين، أى ليس له أن يحل حراما، أو يحرم حلالا، أو يصادم مقاصد الشريعة.

إنما الأحرى أن نقول إن الإسلام «منهج» ربانى شامل يشمل كل مجالات الحياة، من اتبعه فهو على صواب، ومن انحرف عنه فهو مخطىء بقدر هذا الانحراف.

وهذا المنهج له كتاب يحدد معالمه، ويبين حدوده، هو القرآن. وله «مذكرة تفسيرية» هى سنة الرسول ﷺ: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للنّاس ما نُزّلَ إليهم﴾ [النحل: ٤٤].

ومن ثم يرجع فى تفهم هذا المنهج وتصوره إلى القرآن والسنة، ويحكم بهما على تصرفات الناس الواقعية فى كل جيل، ليرى هل هى ملتزمة بقواعد الإسلام أم جانحة عنه.

وهذا الذى تحرص الصليبية الصهيونية أشد الحرص على صرف المسلمين عنه، لأنها تعلم – بالتجربة الواقعية – مكامن الخطر فيه، وأنه هو الذى يحرك

حركات البعث والتصحيح على مدار التاريخ. ومن ثم تجتهد كل جهدها فى تمييع صورة الإسلام، بجعلها لا تُستَمد من هذين المصدرين الثابتين، بل تستمد من واقع المسلمين .. وعندئذ فيها فرج.. وفيها تيسير !!

* * *

ويتصل بهذا الجهد الخبيث كذلك القول بأن الإسلام ليس له «نظم» محددة، وإنما هو مجموعة توجيهات عامة يقصد بها تهذيب الروح، وتعميق الوجدان! وأنه استمد كل نظمه من الفرس والروم.

وهو قول مزدوج الهدف، ومزدوج المفعول:

الهدف الأول: هو تمييع صورة الإسلام فى نفوس المسلمين من زاوية جديدة تضاف إلى ما سبق من ألوان التمييع. فحين لا يكون للإسلام «نظم» يعرف بها، وتتحدد بها صورته فى عالم الواقع.. فماذا يكون؟!

إنه يكون صورة مهزوزة غامضة باهتة ضعيفة المفعول. صورة لا تحتل حيزا واضحا فى الأفهام، ولا تغرى أحداً بتطبيقها فى عالم الواقع.. وهذا أمر مقصود!

والهدف الثانى: هو إيهام المسلمين أنهم يستطيعون أن يأخذوا النظم العربية التى يطلقون عليها جملةً اسم «الحضارة الغربية» ثم يظلون بعد ذلك مسلمين! فإذا كان المسلمون الأوائل – الذين لا شك فى إسلامهم – قد أخذوا النظم الفارسية والبيزنطية وظلوا مع ذلك مسلمين راسخى الإيمان، فما الذى يمنع المسلمين اليوم من أن يأخذوا النظم الغربية ثم يظلوا مسلمين؟! وهذا –كذلك– أمر مقصود.

وكلاهما مبنى على مغالطة علمية ضخمة يقوم بها السادة المستشرقون، يلبسون فيها الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون !

فالنظام شىء.. والتنظيمات شىء آخر.

النظام هو مجموعة المبادئ والقيم والقواعد التى تحدد المفاهيم وتحكم السلوك. والتنظيمات أدوات تنفيذية تعين على تطبيق المبادئ والقيم والقواعد،

ولكنها شيء قائم بذاته، يمكن أن يخدم أى نظام، دون أن يكون بالضرورة قطعة من النظام.

فتقسيم الجهاز التنفيذى للدولة إلى وزارات ومصالح وإدارات وأقسام ووحدات، تنظيم إدارى بحت، يمكن أن يخدم أى نظام يرغب في استخدامه، وهو يخدم بالفعل فى عالمنا الحاضر الدول الرأسمالية التى تسمى نفسها « ديمقراطية » والدول الجماعية التى تقوم على « دكتاتورية البروليتاريا »، كما يخدم الدول الملكية والجمهورية بغير تمييز. ثم يبقى بعد ذلك لتلك النظم، الرأسمالية والجماعية والملكية والجمهورية.. إلخ استقلالها وتميزها، لا تختلط بعضها ببعض ولا تتميع صورتها بسبب استخدامها كلها تنظيماً إدارياً واحداً أو متشابه السمات، ذلك أنها لا تستمد ذاتيتها من التنظيمات الإدارية التى تقوم عليها، والتى تتشابه فيها مع غيرها، إنما تستمدها من مجموعة القيم والمبادئ والقواعد والمفاهيم التى تقوم عليها، والتى تختلف الواحدة فيها عن الأخرى أنواعا من الاختلاف.

والذى أخذه المسلمون الأوائل من الروم والفرس لم يكن هو « النظم »، إنما كان هو التنظيمات.

لقد كان العرب في جاهليتهم فى طور اجتماعى وسياسى واقتصادى متخلف. لا يكونون أمة، وإنما قبائل متفرقة، ولا يكوّنون دولة، وإنما حكومات محلية صغيرة هى مشيخات تلك القبائل المتناثرة. وليس لهذا الطور من الحياة تنظيمات تذكر، فيما عدا تنظيمات بدائية بسيطة يحكمها العرف القبلى البدوى السائد فى الصحراء.

فلما أن صاروا مسلمين نموا نُمُواً سريعا مفاجئا فانتقلوا من طور « القبيلة » إلى طور « الأمة » فى بضع سنوات قصار.. وكان هذا إحدى معجزات هذا الدين.

فلما قامت دولة المدينة أخذ الرسول القائد ﷺ يضع التنظيمات الضرورية لهذه الدولة الناشئة بتوجيه الوحى السماوى تارة وبمشاورة الصحابة رضوان الله

عليهم تارة . . ولكن هذه الدولة على أى حال كانت محدودة الأبعاد، محدودة المطالب، والتطوع النبيل فيها يغنى – فى أغلب الأحيان – عن التنظيم .

فلما اتسعت الدولة وصارت تشمل جزيرة العرب كلها واجهت المسلمين ضرورة وضع التنظيمات للدولة الجديدة، وأحس عمر رضى الله عنه – بصفة خاصة – بهذه الضرورة فبدأ يدون الدواوين، ثم توالت بعد ذلك التنظيمات .

ولكن الدولة كانت تتسع باستمرار، وبسرعة لا مثيل لها فى التاريخ، وتحتاج – بسرعة متزايدة – إلى تنظيمات جديدة، أو قنوات جديدة تسير فيها العلاقات بين الدولة الأم والبلاد المفتوحة، وبين المسلمين والمعاهدين والمحاربين، كما تنظم سير العلاقات الداخلية بين المسلمين وحكومتهم، ،وبين بعضهم وبعض .

وفى تلك الفترة كان المسلمون قد فتحوا بلادا ذات تنظيمات إدارية متقدمة، فى فارس والشام ومصر وغيرها من البلدان . ولم يتردد المسلمون لحظة فى استخدام هذه التنظيمات النافعة فى إدارة الدولة الجديدة ، سواء كان مصدرها البيزنطيين أو الفرس ، فأبقوا – أولا – تنظيمات كل بلد مفتوح على ما كانت عليه قبل مجيئهم إليها ، ثم أخذوا هم فى حكومتهم الداخلية ما رأوه نافعا منها لتيسير الأمور، وإن كانوا قد حرصوا على تطويع ذلك كله لمبادىء الإسلام وقيمه ومفاهيمه، كما ألمح إلى هذا « مرو برجر » فى كتابه « العالم العربى اليوم » .

تلك قصة « الأخذ » الذى أخذه المسلمون من فارس والرم . .

ولكنهم لم يأخذوا عنهم « نظاما » ما . . وما كان لهم أن يأخذوا أى « نظام » من صنع البشر، وهم يملكون النظام الأعلى . . النظام الربانى، المنزل عليهم من رب العالمين :

إن النظام الإسلامى يتميز – ابتداء – على كل النظم البشرية بميزة تجعله مختلفا عن كل النظم البشرية، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وهو أن الحاكمية

فيه لله – أى لشريعته المنزلة سبحانه وتعالى – بينما تقوم النظم البشرية كلها على حاكمية البشر، سواء كان أولئك البشر فردا أو جماعة أو طبقة أو أمة بأسرها. وتلك الخاصية – منذ البدء – تحول بين المسلمين وبين الأخذ من أى «نظام» وضعه البشر بأنفسهم لأنفسهم لأن ذلك يدخل فى دائرة التشريع بغير ما أنزل الله، وهو محرم على المسلمين:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤].

ثم إن النظام الإسلامى – بحكم تنزله من رب العالمين – هو النظام الأعلى والأوفى، فكيف يتركه المسلمون إلى ما هو دونه من نظم البشر، التى هى نظم جاهلية مهما يكن فيها من خير جزئى، إذ فيها قصور البشر، وأنانية البشر وأهواء البشر وانحرافاتهم:

﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠].

ولا مجال هنا لنقاش تفصيلى حول هذه النقطة، فقد فصلنا الحديث عنها فى عدة كتب منها كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» ولكنا نقول هنا كلمة عابرة عن «الديمقراطية» التى يقع فى فتنتها اليوم كثير من الدعاة المسلمين أنفسهم، ظنا منهم أنها تلتقى التقاء كاملا مع الإسلام. فنسأل أولئك المعجبين بها سؤالا واحدا يغنينا عن أسئلة أخرى: هل تقبل الديمقراطية أن تحكم بما أنزل الله؟ أم إنها ترفض رفضا باتا الالتزام بأى شىء خارج ما تقرره برلماناتهم؟ أو ليست برلماناتهم هى التى أباحت الربا والخمر والفاحشة والشذوذ وغيرها من الموبقات، وأعطتها شرعية الوجود؟!

فإذا قالوا نأخذ الديمقراطية **تنظيما**، ونحكم بما أنزل الله، نقول لهم: اتفقنا! ولكن الديمقراطية يومئذ **لن تقبلكم**! لأنها – ابتداء – ترفض الالتزام بما أنزل الله!

وهكذا يبدو – فى عالم الواقع – ألا سبيل للجمع – أو الخلط – بين الإسلام وبين النظم الأخرى التى يصطنعها البشر لأنفسهم من عند أنفسهم، غير

ملتزمين فيها بما أنزل الله. أما التنظيمات فلا حرج على المسلمين أن يستخدموا منها ما شاءوا، مادامت لا تصطدم بقواعد الإسلام.

ولكن السادة المستشرقين لا يرغبون فى هذا التميز الناشىء من الالتزام بما أنزل الله، لأن همهم الأكبر أن يخرجوا المسلمين من إسلامهم الذى يعتزون به ويعتزون بالانتساب إليه:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧].

* * *

ومن الكيد الماكر الذى يستخدمه المستشرقون – الصليبيون الصهيونيون – تجاه المسلمين، إحراجهم الدائم لهم فى كتاباتهم بأنهم لا مناص لهم من أخذ الحضارة الغربية بقضها وقضيضها إن أرادوا أن يعيشوا على مستوى القرن الذى يعيشون فيه، لأن عملية الانتقاء – التى ينادى بها المفكرون المسلمون – أمر مستحيل!

لماذا هو مستحيل أيها السادة؟

فأما أكثر المستشرقين فيلقونها هكذا فى وجوه المسلمين تحديا لهم ليئيسوهم من محاولة الاحتفاظ بذاتيتهم، ومعتقداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، مع أخذ النافع الذى ينقصهم من مكونات الحضارة الغربية! ويغفلون عمداً عمليتى أخذ انتقائيتين كبيرتين تمتا فى التاريخ الإسلامى الأوربى (فضلا عن تجارب أخرى فى أماكن أخرى) الأولى هى أخذ المسلمين من احضارات الأخرى – من فارس والروم بصفة خاصة – دون أن يتنازلوا عن شىء من دينهم ولا مفاهيمهم الإسلامية، والثانية هى أخذ أوربا كل مقومات نهضتها فى العصور الوسطى من الحضارة الإسلامية مع رفض الأساس الذى انبثقت منه وهو الإسلام، بل محاربته حربا شعواء!

ولكن واحدا من المستشرقين – على الأقل – يحاول بطريقة ملتوية أن يلقى الضوء على جزء من هذه القضية، ذلك هو «مرو برجر» فى كتابه «العالم العربى اليوم» إذ يفسر احتفاظ المسلمين بدينهم وعقائدهم مع أخذهم من الحضارات الأخرى، بأنهم كانوا هم الغالبين بالنسبة للحضارة الفارسية، وأنهم بالنسبة لأوربا كانوا يأخذون من حضارة كانت قد أصبحت فى ذمة لتاريخ (١)! ومن ثم فلا خطر من الأخذ من هنا ومن هناك، وإمكانية الاحتفاظ بالذاتية المتميزة قائمة، لأن المغلوب لا يستطيع تغيير شخصية الغالب، والحضارة الميتة لا تغير شخصية الأحياء!

ثم مضى يقول – مشاركة منه فى حركة التيئيس التى يقوم بها المستشرقون جميعا – إن هذا الأمر لم يعدله اليوم مجال، لأن المسلمين فى الوقت الحاضر منهزمون أمام الغرب، فلا يستطيعون الانتقاء من مقومات الحضارة الغربية، إنما عليهم أن يأخذوها كما هى، حزمة واحدة لا تتجزأ، ولا ينفصل بعضها عن بعض:

﴿ يا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[آل عمران: ٧١].

إن هذا التعليل الذى يحاول به «مرو برجر» تفسير احتفاظ المسلمين بشخصيتهم المتميزة فى حركة الأخذ الأولى – والذى يبدو مقنعا للوهلة الأولى – يغفل ما حدث فى حركة الأخذ الأوربية من الإسلام، فلم تكن أوربا فى حركة الأخذ هذه غالبة للإسلام، بل منهزمة أمامه، ولم تكن الحضارة التى تنقل عنها ميتة، بل حية موارة.. ومع ذلك أخذت أوربا كل ما أخذت ورفضت الإسلام!

وبصرف النظر عن حماقة أوربا فى رفضها للإسلام، ومحاربته حربا شعواء، فالذى يهمنا هنا هو قضية الانتقاء، ومدى علاقتها بالغلبة والهزيمة! والتجربة الأوربية فى العصور الوسطى تنفى أى علاقة بينهما، وتؤكد أن المنهزم يستطيع

---

(١) يقصد الحضارة الهيلينية.

الانتقاء من الحضارة التى ينقل عنها، ولا تفرض عليه هزيمته أن يأخذها بقضّها وقضيضها كما يريد المستشرقون أن يفرضوا على المسلمين فى الوقت الحاضر، ليستعبدوهم لسلطان الغرب، وليخرجوهم من الإسلام!

الانتقاء ممكن فى كل لحظة، ومع كل حضارة من حضارات التاريخ، ولو كره المستشرقون!

فإذا أراد المسلمون اليوم إقامة مجتمع «حديث»، واتجهوا إلى الحضارة الغربية لينتقوا من مقوماتها ما يستعينون به لتحقيق هذا الهدف، فسيجدون فى تلك الحضارة أشياء كثيرة نافعة، وسيجدون فى الوقت ذاته انحرافات وانتكاسات ربما كانت هى الأبشع فى التاريخ. ومن البديهى الذى لا يحتاج إلى جدال أن عليهم أن ينتفعوا بالنافع فى هذه الحضارة، ويتجنبوا – كل التجنب – ما فيها من انحرافات وانتكاسات.

فأما التقدم العلمى والتقدم المادى والتقدم التكنولوجى، وعبقرية التنظيم، والمثابرة على بذل الجهد، وطول النفس.. فكلها أشياء نافعة، وقد كانت الأمة الإسلامية تملكها جميعا حين كانت مستمسكة حقا بإسلامها، عاملة به فى واقع الحياة، ثم فقدتها كلها أو جلها حين انحرفت عن حقيقة إسلامها وصار الدين عندها تقاليد مرعية أكثر منه حقيقة واقعة، وقوة دافعة.. فعلى الأمة اليوم أن تتتلمذ فيها على الغرب وتقتبس منه، إلى أن تستعيد حاستها الذاتية التى فقدتها فى فترة جمودها وانحرافها.

وأما نظرة الغرب إلى الله والكون، والإنسان وغاية وجوده وحدود طاقاته ومعيار إنجازاته.. فهى نظرة جاهلية لا يجوز لمسلم أن يتخذها، أو يتخذ ما يترتب عليها من فلسفات وسلوكيات، لأنها تصادم عقيدته مصادمة مباشرة، فضلا عما تحتويه فى طياتها من شر..

فالإلحاد الصريح أو المبطن، والطبيعة الخالقة التى ابتدعها دارون وقال عنها إنها تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق (!) والتفسير المادى

للتاريخ [١] ، والتفسير الجنسى للسلوك البشرى [٢] ، والتفسير الجمعى للحياة البشرية [٣] ، وإطلاق العنان لحيوانية الإنسان بدلا من رفعه إلى مستوى الإنسان، وقانون الغاب الذى يحكم السياسة الدولية . . هذه وأمثالها كلها انتكاسات تمارسها هذه الحضارة الجاهلية، التى ما أنزل الله بها من سلطان، والتى تستمد مفاهيمها من الشيطان . . فهل يمكن أن يكون موقف المسلم منها هو مجرد القبول، فضلا عن الإقبال؟!

وأما أسطورة عدم إمكان الفصل بين مقوّمات هذه الحضارة بعضها وبعض، وضرورة أخذها حزمة واحدة، وكتلة موحدة . . فهى مجرد أسطورة، من بين عشرات الأساطير التى تعيش فى عصر « العلم » و « العقلانية » و « التنوير » !!

* * *

ومن وسائل الكيد التى يستخدمها المستشرقون كذلك تبنى الحركات الإسلامية الزائفة أو المنحرفة، ومهاجمة كل حركة تهدف إلى بعث إسلامى أصيل .

جاء فى ص (٥٢) من كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » :

« ومؤتمر المبشرين الذى عقد فى القاهرة (سنة ١٩٠٦) لم يفته البحث فى حركة الإصلاح (!) التى دخلت فى مسلمى الهند، والإشارة إلى السير « سيد أحمد خان » زعيم تلك النهضة (!) وما تبذله مدرسته الإسلامية فى « عليكره » ومؤتمر التربية الإسلامية . ولقد خطب القسيس ويتبرتشت فى مؤتمر القاهرة بموضوع « الإسلام الجديد » (!) فذكر أن تعاليم أوربا تقرب المسلمين من النصرانية » .

---

(١) المسئول الأول عنه هو ماركس وإنجلز ولكنه انتشر فى الفكر الغربى كله حتى ما كان منه « ليبراليا » .

(٢) المسئول الأول عنه هو فرويد، ولكنه أصبح واقعا معاشا فى الغرب كله .

(٣) مبتدعه هو دوركايم ، ولكنه يدرس فى جميع أقسام الاجتماع فى العالم، حتى العالم الإسلامى !!

وجاء قبل ذلك فى ص (٤٦) من الكتاب : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم **لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها** » .

والمستشرقون – الذين هم الامتداد « العلمى ! » للمنصرين – يسيرون على نفس المنوال فى تبنّى الحركات الزائفة والمنحرفة لعلها تقطع الشجرة التى يغيظهم وجودها، ورسوخها فى الأرض، وتحديها لكل جهد يبذلونه لوقف امتدادها وانتشار فروعها .

ومن هنا تجد عناية كبيرة فى كتب المستشرقين بالتصوف [1] ، إلى حد أن يتخصص له مستشرقون مثل نيكلسون وأوليرى، وينفقوا معظم جهدهم فى هذا السبيل، كما تجد عناية خاصة بحركات الفرق الباطنية وتراثهم وآدابهم، وأدب الخوارج، والقاديانية والبابية والبهائية . . إلخ .

أما حركات البعث الإسلامى الحقيقية . . فياويلها من المستشرقين !

هجوم بكل وسائل الهجوم، وتشويه بكل وسائل التشويه، لعلهم ينفّرون منها « المثقفين » أو يقتلونها بالدعاية والتشويه .

* * *

وكما يتفق المستشرقون على مهاجمة الحركات الإسلامية الحقيقية، وإضفاء المديح على الحركات المنحرفة عن خط الإسلام الأصيل، فكذلك يصنعون مع الأشخاص العاملين فى الحقل الإسلامى .

فأما الأشخاص المنحرفون فيكال لهم المديح . .

وأما الأصلاء فهم موضع النقد والتجريح . .

ومن يتتبع كتب المستشرقين – الحديثة بصفة خاصة، التى تعنى بتسجيل الاتجاهات الإسلامية المعاصرة، والإنتاج الفكرى الإسلامى الحديث – يجد

---

(١) تحدثنا عن الصوفية فى كتاب « واقعنا المعاصر » ومدى انحرافها عن منهج الإسلام الصحيح، والفرق بينها وبين « الزهد » الذى هو منهج إسلامى أصيل .

القاعدة سارية **بلا استثناء**. كل شخص قدم «جهدا» منحرفا يؤدى – بأية صورة من الصور – إلى تشويه حقيقة من حقائق الإسلام، أو تمييع مفهومه فى نفوس المسلمين، أو انساق وراء أضاليل المستشرقين فرددها فى كتاباته، أو تورط – ولو بحسن نية، نتيجة إحراج المستشرقين الدائم للمسلمين فى القضايا التى يثيرونها – فأدلى بكلام يوافق هدفا من أهدافهم، فهو موضع الحفاوة والتكريم من المستشرقين، يشيدون به فى كتاباتهم، ويبرزونه، ويستشهدون به استشهاد المؤيد الموافق المعجب بما يقول.

وأيما شخص من الجانب الآخر قدم المفاهيم الصحيحة للإسلام فهو موضع الهجوم: رجعى! مفكر «تقليدى»! متزمت! متعصب! ضيق الأفق! عاجز عن الإحاطة بحقيقة الأوضاع! عاجز عن الإحاطة بالتقدم البشرى.. إلخ!

* * *

تلك – تقريباً – هى الأمور التى يتفق عليها المستشرقون، ويرددونها فى كتاباتهم، ويلحون فى ترديدها حتى تحدث الأثر المطلوب.

وهناك بعد ذلك «تخصصات» لبعض المستشرقين، إلى جانب الجهد المشترك بينهم جميعا. ولكن هذه التخصصات لا تخرج فى النهاية عن الخطوط الرئيسية للكيد الصليبى الصهيونى الموجه ضد الإسلام.

وهذا كله فى «البند الأول» من المخطط الصليبى الصهيونى تجاه الإسلام.

ولكن المستشرقين – بوصفهم جهاز الاستخبارات الثقافى للصليبية الصهيونية – يؤدون – كما أشرنا فى مقدمة هذا الفصل – مهمة أخرى لا تقل خطرا بالنسبة للمخطط المرسوم.

إنهم يقومون بمهمة الدراسة التفصيلية الدقيقة – العميقة – لكل حركة إسلامية، وكل اتجاه مستقيم أو منحرف يحدث فى العالم الإسلامى، ليبلغوا الدول صاحبة الشأن بمجريات الأمور فى الساحة الإسلامية حتى تعد العدة

لمواجهتها بما ينبغى من وسائل الحرب والإفساد والتخريب والتدمير، كما يقومون بالنصيحة إلى جانب الدراسة، فيشيرون على دولهم بالتخطيط المطلوب!

يقول جرونيباوم فى كتابه «الإسلام المعاصر Modern Islam»: «إن المسلمين استغرقوا فترة من الوقت فى الاتجاه نحو الغرب (Westernization) وكان هذا هو الأمر الطبيعى بالنسبة لهم فى فترة من الفترات، ليحصلوا على القوة والتقدم. ولكن هذه الفترة انتهت، وبدأ المسلمون يبحثون عن ذاتيتهم المفقودة، **ولن يجدوا هذه الذاتية إلا فى الإسلام...**».

وهو كلام له خبيىء!

معناه تنبيه الدول صاحبة الشأن إلى أن هناك «عودة» إلى الإسلام فى البلاد الإسلامية، بعد الجهد الذى بذل خلال قرنين من الزمان لصرف المسلمين عن الإسلام. فعلى هذه الدول إذن أن تعد عدتها لمواجهة هذا الأمر! (وإنها لتعدها بالفعل!).

ويقول المستشرق الهولندى «نيوفنهويجى» فى مقال بعنوان «أثر القرآن فى صياغة الحياة الإسلامية: The Quran as a Factor in the Islamic Way of Life»، منشور فى الدورية الاستشراقية السنوية المسماة: «الإسلام Der Islam» عدد سنة ١٩٦٣، بعد كلام طويل يستغرق ٤٢ صفحة عن القرآن، وعدم تحريفه، وغير ذلك من القضايا القرآنية: «إنه لا فائدة ترجى من محاولة تغيير أفكار المسلمين عن طريق تغيير فهمهم لحقائق القرآن وحقائق الإسلام! فهى أرسخ من أن تقبل التغيير! **وإنما يكون التغيير عن طريق إدخال المفاهيم الأوربية فى حياة المسلمين كواقع لا علاقة له بالإسلام ولا بالدين!!**».

أما مرو برجر فى كتابه «العالم العربى اليوم» فهو يدرس بالتفصيل، ويرسم بالتفصيل!

والآن، وقد شرحنا «القضايا العامة» فى كتب المستشرقين، فلعل من المناسب أن نعرض نماذج من كتاباتهم بشىء من التفصيل.